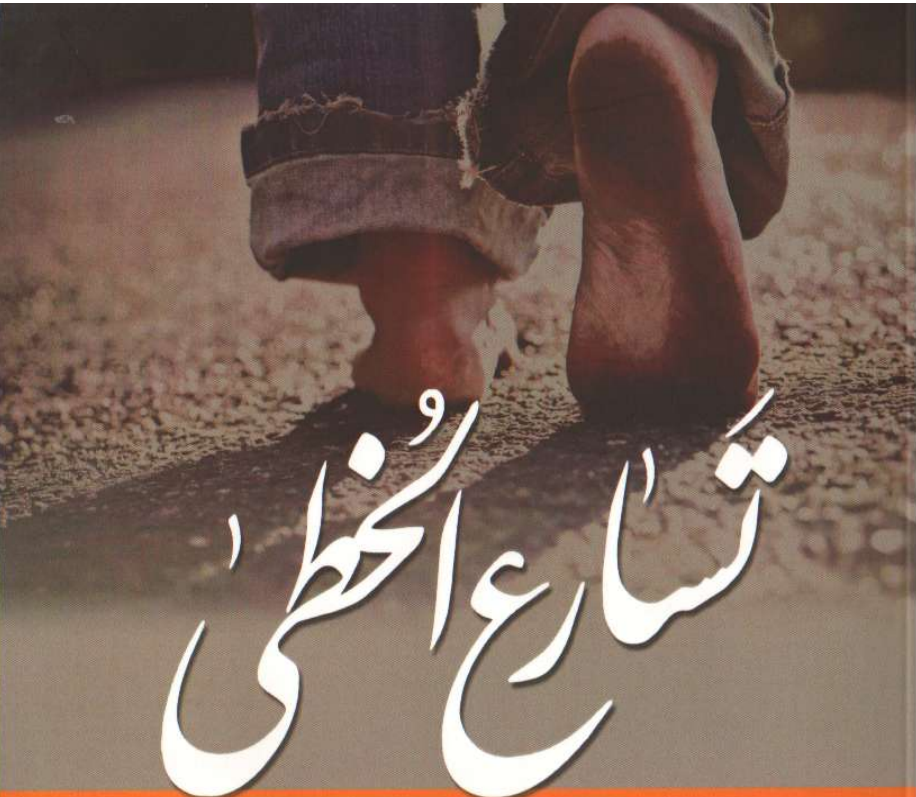

تسارع الخطى

احمد خلف

رواية

مكتبة
الفكر
الجديد

من كتب
عبير الربيعي

تسارع الخطى

مكتبة
الفكر
الجديد

رواية

المؤلف: أحمد خلف
عنوان الكتاب: تسارع الخطى
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 600
+ 964 (0) 790 1919 290
www.almada-group.com_ email: info@almada-group.com

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617
www.daralmada.com _ info@daralmada.com

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289
ص.ب: ٨٢٧٢

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على اي نحو، او بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

مكتبة الفكر الجديد

أحمد خلف

تسارُع الخُطى

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

((هذه حكايةٌ سأرويها، هذه حكاية ستسمع...

هذه حكايةٌ سأرويها كما يَليقُ أن تُروى...

سيكون سردُها لطفاً يَفرِض الاستمتاع بها...

سان جون بيرس

= ابتهال =

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

– هل لي معرفة أين أنا الآن؟

– لتبقَ ساكتاً وساكناً أيضاً عليك أن تكفّ عن السؤال؛ لن يصغي إليك أحد، ألا تسمعُ الريح كيف تعوي في الخارج؟ لعلّ هذه الريح ستكون لك عوناً غداً مع مجيء الصباح أو بالحري فجراً، كلّ شيء سيكون على ما يرام، شرط أن تبقى ساكناً ولا تبادر بالقيام بحركة، قد تأتي بالسوء إلى قلبك المكلوم، فأنت خائف وربما تنتابك عشرات الصور المفزعة، ربما تفكر في أمور لا تخطر في بالِ أحد، لا شكّ أن الخوف والجزع يأكلان في داخلك، ولكن خذ بنصيحتي ولا تستفزّهم بأيّة حركة قد تشعل غرائزهم الحيوانية ضدّك، أتدري أين أنت في هذه الساعة؟ عليك أن تحدّد أو تحزر موقعك، أعني المكانَ أو الزريبة التي رموك فيها، أي خديعة قادك إليها القدر مرغماً؟ كم من السنوات ضاعت وتلاشى بريقها الآن؟ في أيّ شارع أو زقاق منسيٍّ التقطوك وأرغموك على المجيء معهم؟ ألم تستطع المدينة، المدينة العامرة بالبنايات السامقة، والبيوت الكثيرة والحانات والبارات ودور الدعارة أو الشوارع والأزقّة الضيقة المعتمة الملينة بشذّاذي الآفاق، كلّها لم تستطع أن تحميك أو تخفيك عن عيون القتلة ودعاة اختطاف الناس من أماكنهم الآمنة التي يتواجدون فيها! تُرى هل ثمّة خصومة سابقة أو ضغينة دفينة تحوّلت وتطوّرت إلى أن تصبح عداوة متجذّرة؟ أي الحظوظ التعيسة أتت بك طائعاً إلى هنا.. إلى أرض السموم والعداوات التي يغلّفها حقدٌ دفين، إلى أرض يتنفّس فيها الموت في كلّ زاويةٍ من زواياها وكلّ ركنٍ من

مكتبة الفكر الجديد

أركانها؟ أرض المكائد والخطط المتقنة والمتّفقة على تحطيم كرامة الإنسان ما دام لا يتفق معهم في رأي أو مذهب أو عقيدة أو فكرة تخدمهم وتعطي لمشاريعهم شرعيّة مزيّفة لكي يواصلوا الانتقام من خصوم وهميّين هم يصنعونهم ويعلنون الحرب عليهم ومتى يخططون أو متى ينتقمون، مرة اخرى أدعوك إلى أن تأخذ حذرك، اجعل من عقلك بوصلة سرية تقتفي اثر الصورة أو المشهد الذي يرسمه خاطرك.. لا تصدر أيّة حركة بقصد أو بدونه واعلم أنّ الخطوة القادمة سأتكفل بها وحدي وسأبذل قصارى جهدي في إطلاق سراحك من هذا الجحر المظلم نحو الدنيا الواسعة، دنياك التي تفتقدها الآن.

(أدهشه أن يسمع صوتاً أنثوياً يخاطبه بمودّة صريحة، لعلّه سيعرف أين هو الآن، وماذا يريد منه مختطفوه، أراد أن يسألها لكنه أرجأ السؤال إلى وقت تهدأ فيه نفسه المرتابة الخائفة، كانت حكمة منه ألا يسألها عن الذي جرى له في غفلة من الزمن، لكن لماذا من يخاطبه في هذه اللحظة امرأة؟ أتراها لعبة يلعبها خاطفوه، لكي تستدرجه الفتاة التي اتّضح عمرها من نبرات صوتها الدافئ الحنون، حتى لو كانت ضمن لعبة يلعبونها ضد إعادته إلى بيته وأهله، إلى الدار التي لم يدرك معناها ولا عرف قيمتها إلّا الآن، في هذه الساعات القليلة لكنها ثقيلة على قلبه، حجر جلمود يزن ألف طن يرقد على صدره، هذا الغياب الذي لم يحسب له من قبل أي حساب، كيف التخلص منه، الآن، بل في هذه اللحظة التي بدأت فيها الأمور أكثر غموضاً بحضور هذه الفتاة صاحبة الصوت الناعم والرقيق أيضاً، لو لم تحضر الفتاة إلى هنا وتتحدث معه ربما يرضيه الدخول في لعبة التخمينات والحدس وعليه أن يهيّئ نفسه لمئات الاحتمالات، لكن الفتاة فجأةً راحت تبثُّ في أعطافه نوعاً من الأمل، وهي تسترسل في خطابها معه كأنها لم تشغل بالها به أو بغيره أبداً). سمعها تقول له من جديد:

مكتبة الفكر الجديد

– ولكن إذا خالفت مقترحي في لجوئك إلى السكينة والحفاظ على الهدوء التام سوف تلقى مزيداً من التقريع والإهانة وما لا تتوقعه من أصناف التأنيب وسحق الكرامة، بل والضرب أحياناً، منهم بالطبع، من خاطفيك، إذ عندما يراودهم الشك في أمرك، الشك والريبة هما الآفتان اللتان تستوليان على عقولهم ونفوسهم دائماً.. أنا أيضاً يجب أن أكون أكثر هدوءاً وصبراً على ما يجري أمام عينيّ، لا بدّ من العمل على التخلص من هذه اللعبة، التي لا معنى لها، كل هؤلاء وأولئك لن نغفر لهم أفعالهم، التي طالت الناس الفقراء، ترى هل أنت من الناس الفقراء؟ أنا هنا أبصر الأشياء بصمت، كل الأشياء من حولي، السيئة منها والطيبة، مهما يكن لا بد من وجود بصيص أمل ينقذنا، ينقذك، لا تدع أيّ شيء يشغلك عن خلاصك وهذا ليس بالأمر الهيّن أو اليسير، أخشى أن يصبح تحدّينا لهم مكشوفاً، عندها يوجهون لنا ضربةً قاصمةً لن يتركوا بعدها أمامنا فرصة سانحة للخلاص أو الهرب.. الآن، أراهم يزحفون نحو النوم، سيذهبون إلى الرّقاد ويغطّون في نومهم الليلي المرتقب، حين يهبط الليل بعباءته السوداء يستسلمون إلى إغفاءة كافية، حانت ساعة تقاطرهم إلى النوم والاستسلام إلى غوايته وإلى غيابهم الذي ننتظره ونعد أنفسنا به، تلك الفرصة الضرورية التي لا تملك غيرها للهرب، أنا أيضاً ينبغي لي الخلاص من المحنة قبل وقوعها لكي أغادر هذا الجحيم، ألا تدري أنهم يساومون على حياتك ولن يغفروا لأحد السخرية منهم أو يخدعهم، إذن عليك أن تستمر في هدوئك وصمتك وهذا السكون الجليل الذي صنعته من حولك، يقيناً ستأتي ساعة الفرج وتطلق ساقيك للريح متخلصاً من أسرك، تحطم قيودك من هذا الجحر الذي لم يخطر ببالك في أيّ يوم مضى إذ لم يرد في عقلك أنهم سوف يخطفونك على حين غرة، كم من الأشخاص مرّوا من هنا؟ كانت مصائرهم بيد هذه الحفنة من القتلة وقطاع الطرق واللصوص الذين لا يشبعون، ألا تعلم كم سرقوا ونهبوا لكي تثري

مكتبة الفكر الجديد

عوائلهم وأبناءهم وبناتهم من المال الحرام ولكنهم لا يشبعون أبداً، لا أحد يعلم أيّ مصير مجهول سيدفعون بهم بلا رحمة، أعني أولئك المختطفين الذين لا يحالفهم الحظ في تدبير ثمن الفدية التي يطلبونها منهم!! ترى كيف تركتهم يصطادونك في غفلة عما يجري في هذه الدنيا؟ ألم تشمّ رائحة مؤامرة، رائحة قنص بشري، ألم تلحظ روحاً شريرة تحاول الالتفاف عليك وتطويقك لغرض اصطيادك والفوز بالفدية الثمينة، ترى من يسدّد مبلغ افتدائك؟ أيّ لحظة شاذة حين قرروا فيها أن تكون أنت طريدتهم، أنا أيضاً سأنطلق بعدك في الحال، أُصبِحُ بعد ساعات خارج أسرهم، والأفضل أن يتمّ كل ما نريده بسريّة تامة. لمّا شاهدتك وهم يلقون بك في هذا الجحر أدركت أنهم يحتجزونك مقابل فدية من المال، ترى من يمتلك النقود الكافية لسدّ أفواههم التي لا تشبع؟ أمك؟ أم أبوك؟ هل لديك بين ذويك من هو قادر على التفاوض معهم إذا تمكنوا من إحكام قبضتهم عليك؟ بالنسبة لي سأبذل جهدي من أجل إنقاذك من براثنهم وإذا خامرهم الشك واستولت الريبة على قلوبهم ساعتها سيلقون بك إلى الكواسر ولن يعرف بمصيرك أحد. ولكن حذار من التسليم لمشيئتهم فهم لا يرحمون، ألم تسمع بالعشرات ممن ضاعوا ولا يتذكرهم أحد من معارفهم أو خلّانهم وما هو المصير الذي آلت إليه حياتهم؟

حاول لملمة طاقته لكي يسألها من تكون؟ وماذا تريد؟.. تردّد قليلاً لأنه كان يخشى أن يحرّك كوامن الخوف في أعماقها البعيدة منه وتتصوره بحالات وصور شتى لأنها لا تعرف عنه الكثير بل فكّر متردّداً. أن ما تعرفه هو ما سمعته من الخاطفين، إذ دون شك هي لم تلتقيه أو تتعرف عليه في ما مضى من أيام، و لم يسبق له أن سمع هذا الصوت واستمتع بنغماته، وهذه الشحنة الطاغية على صوتها توحي بمزيد من الدفء الرباني الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده الصالحين، وغيرهم كذلك، وهي بما تحمله من عطف وقلق عليه لا يمكن أن تكون من بين خيوط التآمر وحبائل الضغينة، لا بد

مكتبة الفكر الجديد

وأن تكون مثله مختطفة من قبلهم، أو متمردة على قوانينهم أو أن قلبها الرقيق لم يعد يحتمل ما تراه من جور أمام عينيها، ربما أدركت خطورة سكوتها على أفعال سيئة، لا يتساهل – مع السكوت – عنها القانون؟ ضحك في سرّه من تصوراته المجنونة التي وجدها تنهال تحت تأثير حمّى اختطافه من قبل مجهولين لا صلة له بهم ولا يعرفهم، ربما هم يعرفون عنه النزر اليسير من المعلومات ولا شك أن الكثير من هذه المعلومات ينقصه الصدق، لكنهم ارتضوا بما حصلوا عليه من هنا وهناك من أخباره، ولكن هل يعلمون أنه ممثل وكاتب مسرحي؟ ربما التقوه في أحد أعماله المسرحية من قبل، وضحك في سرّه: أي أعمال هذه يا مسكين؟ من أين لك المجال لكي تفتخر أمامهم بتاريخك المسرحي العتيد، وضحك ثانية مع نفسه على كلمة عتيد، غير أن الفتاة انخفض صوتها كثيراً هذه المرة وأصبح أشبه بالهمس المبهم لكنه ظلّ يصغي جيداً، لعلّها لمحت أحد الخاطفين أو أدركت خطورة الحديث معه الآن. عاد الصوت ثانيةً للبوح والهمس:

– حين أزورك في الهزيع الأخير من الليل هنا في هذا الركن المهمل من البيت لا ترتبك وأنت تسمع خطواتي، لأني سآتيك بساعة الصفر للانطلاق فجراً إلى ما وراء عالم الكهف المظلم هذا والمغلق المنافذ، كل شئ موصد ودونه السيف، ألا تعرف ماذا يعني السيف؟ ومآثره المشهودة في كل عصر وزمان؟.. يقال أنّك تقوم بأعمال عدّة ولا يعرف عنك أحد أيّ شيء ثابت أو محدد!! هل صحيح أنك تعمل في المسرح؟ ماذا تعمل هناك؟ ممثل؟ أم مخرج وما حكاية التاجر الوسيط؟ هل هي أكذوبة منتحلة أردت من خلالها أن توهم خاطفيك، وتدخل إلى نفوسهم الريبة والشك في كل ما اتخذوه ضدك، وما خطّطوه لأجل الوصول اليك، واضحة هي الطرق الصعبة والعسيرة التي سلكوها للفوز بالغنيمة، لقد عملوا المستحيل لمعرفة المسالك التي تتخذها في الوصول إلى غايتك ومرماك البعيد، هل أنت خطير إلى هذا الحدّ الذي سمعته منهم ليلة أمس من أنك

مكتبة الفكر الجديد

غامض ولا يقرّ لك قرار، وأنك أوقعت الكثير من الناس في حبائلك. هم قالوا ذلك واتفقوا عليه. وقالوا أيضاً: أنك كنت متزوجاً من إحدى قريباتك وأن الزواج منها كان بالنسبة لك خيبة لا توازيها خيبة أخرى وهي التي دفعتك إلى ارتكاب حماقة تركك التجارة كوسيط بين التجار العراقيين والتجار العرب الآخرين، تركت هذه التجارة المربحة لتعمل في المسرح وتحت إمرة أناس لا يستحقون الوقت الذي تضيعه معهم، هل هذا الذي أقوله الآن صحيح أم أنك أدخلتني في دوامة أحابيلك وفنونك التي دوختهم بها، أعلم أنهم في حيرة من أمرك وأنك غنيمة لا يمكن التفريط بها. أعلم حين تصبح خارج الطوق سترى كيف يفتح العالم ذراعيه لك لاستقبالك، لعلّك تنتظر لحظة فوزك بحريتك.. أتذكر حين أتوا بك إلى هنا معصوب العينين ولا تعرف أي مصير ينتظرك؟ ترى هل أنت جاهز للانطلاق القريب نحو الخارج؟

(الآن ما الذي ينتظره أو يتوقعه أن يحدث حتى تأتي الساعة، ساعة خلاصه من أسره كما وعدته الفتاة، هل هذا الذي يراوده الآن سيكون حقيقة؟ أتراها تنفذ خطة أوكلت إليها من قبلهم مقابل جائزة أو مكرمة أو هدية ثمينة؟ سمّها ما تشاء، فهي في الأخير إذا صدقت ظنونك سيكون الثمن رأسك الذي يعادل لديهم، ثمن الفدية التي يطلبونها لتحريرك من هذا الاختطاف المفاجئ وغير المتوقع.. حسناً إلى أين سألجأ إذا أطلقتني الفتاة ولكن يا ترى ماهو الثمن الذي تطلبه مني؟ أم أن لها حادثاً جللاً معهم وتريد الانتقام منهم، لا.. لا.. ليس هذا الذي تفكر فيه صحيحاً، هي ابنتهم ولكنّ عقلها يختلف عن عقولهم الناشفة، ألا ترى كيف تفكر الفتاة وتستنطق الحجر بخطابها المدهش لقد أعجبك منها مقدرتها على ترتيب أفكارها وحسن تدبيرها للأمور من حولها ومما يدور من حولك، ورغم حديثها الطري والمتفائل في نظرك إلا أنها لم تتورط في إزاحة رباط عينيك لترى ما يدور من حولك؟ اعترف أنك غير قادر للوصول إلى

مكتبة الفكر الجديد

اليقين عن حقيقتها، حقيقة الفتاة التي ستكون سبباً لانطلاقتك المنتظرة والتي تترقب حدوثها لحظة بعد أخرى).

سمعها تتحرك بالقرب منه، لم يُصدر أيّ حركة تثير غضبها أو تحرك مكامن الغيرة في نفوس الآخرين، عليه أن يتوقع كل شيء لم يتوقعه من قبل، وإذا ما جاء أحدهم سوف يلجأ إلى الصمت التام ولن يتفوّه بكلمة واحدة، تلك قواعد اللعبة وعليك أن تتقنها، انتابه شك في أن الفتاة تركت الغرفة وأنها الآن بيد أحد خاطفية، وعلت وجهه تكشيرة سخط ليس على أحد بذاته بل ضد هذه الدنيا كلها الدنيا التي ورطته بمحنة هو غير مؤهل لاجتيازها، سمع صوت الفتاة يهمس له:

– الآن سأنتزع القماشة السوداء وأزيحها عن عينيك وأحرر يديك ولا يبقى أمامك إلا الانطلاق كالنيزك أو الشهاب لن يعترض طريقك شئ أبداً ها أنت الآن حر، سوف تشمّ نسيم حريتك المفتقدة منذ صباح أمس وليلته أعني النهار الذي اختطفوك وليلته الثقيلة على روحك، عليك أن تتذكرني باستمرار حالما أطلقك من أسرك وتصبح لحظاتك كلّها تحدٍّ لهم وسوف يلطمون وجوههم عندما يبدأ اليأس يأكل قلوبهم حين يصبح لديهم يقين قاطع بعدم القبض عليك ثانية، أي أن قرارهم باختطافك فشل وسوف يعتقدون أنك تمكنت من النيل منهم بل لا مفرّ من أنهم سيؤمنون بأنك هزمتهم بفطنتك بل بذكائك الحاد الذي جعل منهم مسخرة بين بعضهم البعض وستسمع صدى جريهم السريع في كل مكان قريب منك، إني سأقوم بواجبي تجاهك، عطفاً عليك أنا أدرك كم تبدو لي مسكينا ولا تأخذ الأمور بصورة جادة إلا حين تجد نفسك وجهاً لوجه أمام الخطر، حتماً لن يداخلهم الشك بي ولن يصدقوا عقولهم حين تراودهم فكرة طارئة أني أنا التي أطلقتك، بل سيفكرون أول الأمر أنهم لم يوثقوك بصورة كافية وستبدأ سلسلة تقريع بعضهم البعض الآخر،

مكتبة الفكر الجديد

حتى إذا لم يقتنعوا بتوصلاتهم واتهاماتهم فإنهم سينتقلون بشكّهم إلى بقية أفراد الأسرة حتى يصل شكهم إليّ ولن ينفعني شيء إلا الهرب من نواجذهم، أما بالنسبة لك حين تنطلق كن حذراً من الطريق وكل شيء تراه قريباً إليك، لا تلتفت إلى الوراء، عليك أن تصغي إلى تسارع الخطى،، إلى وقعها المتصاعد مع الجري المتلاحق، خطاك وهي تصنع لحنها الخاص، عليك أن تزيد من تسارعه. لحنٌ يظلّ يرافقك إلى عالمك الجميل الذي ينتظرك.

انطلقَ يسابق الطير في جري سريع بعد أن فتحت أمامه كوّة في الجدار لا يعلم إن كانت فتحة مخفية أم أنها مجرد باب صغير، جدار كبير تحدّه بساتين ومزارع وأرضٌ بورٌ لا يرى لها نهاية أو مثابة يمكن أن يلوذ بها شخص هارب مثله.. وصدى صوت يكلّمه متسائلاً: إلى أين المسير يا نور عيني؟ ما الذي خلفته له السنين ويده قبض الريح، كيف استسلم لهم؟ ضربة قوية على قمة الرأس نالت منه في الحال، وبين يديه وأمام عينيه، دارت الدنيا الخؤون دورتها. غير المتوقعة، يقيناً هذا الذي يجري معه ليس فصلاً في مسرحية أو تمثيلية درامية يعرضها التلفزيون في يوم من أيام المناسبات الدينية والاجتماعية والقومية التي لا عدَّ لها ولا حصر، ففي هذه المناسبات يتوق المشاهد إلى رؤية دراما يمتزج فيها الفرح بالحزن والمأساة بالملهاة والضحك بالبكاء.. يتذكر المسرحي الطيب (كلّما ضاقت به السبل) تلك الأدوار البسيطة التي أُسندت إليه، وكان يقول معقباً عليها إنها أدوار جاءته خطأً فهو ما زال يصرّ على أنه كاتب مسرحي، وما قام به من أدوار مسرحية هو من أجل إثبات الذات فقط، كم مضى من السنين وهو يحلم في أن يغادر البلد إلى بلد بعيد، إلى أرض واسعة أخرى، مدن يغطيها نور المصابيح المشعّة وشوارع مزدانة بألوان عديدة والضحكة تتفجر في كل منعطف وزاوية. يحلم بالنساء الجميلات، وعيون تخترق الروح وحياة ترفل بالهدوء والسكينة

مكتبة الفكر الجديد

والأمن والسلام، حلم الرجل الذي أمضى ردحاً من الزمن وهو غارق في حلم كبير متواصل، الحلم بالمسارح الكبيرة الغارقة بالضوء والنور البهي ووجوه الممثلين الأذكياء المعافاة والممثلات الجميلات اللواتي يرفلن بالسعادة والحبور غالباً ما تستدير إليهن وجوه الرجال والبشرة الصافية التي أخذت من الشمس التماعتها المحببة لتصبح شاهداً على جمال الطبيعة وحسن تناسقها، ذلك بعضٌ من حلمه الكبير الذي طواه الزمن ولكن السيد عبد الله لا يريد أن يصدق أن كل شيء قد تلاشى مثل سراب يتراجع تحت أشعة الشمس المضيئة والمشعة.. ظلّ لوقتٍ طويل يحلم بالبيوت النظيفة المليئة بالمسرات وبالناس الفخورين بأنفسهم.. حَلِم بهذا كله وحلم أيضاً في أنه سيكتب ذات يوم جميل مسرحية تبهر الناس من حوله وتجعلهم يعلنون اعترافهم به وبأحقيته وتدفعهم إلى أن يصفقوا له وقتاً طويلاً، يكتب أو يمثل مسرحية مهمة ذات طبيعة تراجيدية لكنه الآن يجري منطلقاً لا يلوي على شيء، ذلك لأنّ أيّ تباطؤ سوف يجعله لقمة سائغة في فم واسع، فم يلتهم البشر كالمارد أو كاللعنة التي حلّت عليه في تلك السّاعة التي غادر فيها المنزل لكي يلتقي أحد زملاء ابنة أخته التي غرّر بها كما أوحت البنت بحقيقة الأمر وسيجد نفسه مضطراً لتوضيح موقف البنت، تجاه زميلها الذي حاول أن يتذكر اسمه.. و قال لنفسه أظنّ أن اسمه رياض، نعم هذا هو الاسم كما ردّدته هند أمامي وأعادت الاسم أكثر من مرة في زيارتها الأخيرة لي في البيت.. وإذا ما تيسّر له اللقاء بالفتى ربما يستطيع أن يقنعه في إتمام المسيرة مع هند، حتى تنفيذ مشروع الزواج إذا قيّض لهما السير معاً، في ذلك اليوم الذي قرر فيه عبد الله القيام بما يتطلبه واجبه تجاه البنت، كان عليه أن يستقل سيارة أجرة صغيرة أو أن يلحق بأحد الباصات المعروفة والشائعة هذه الأيام في الطرقات العامة، زحفت خطواته بالاتجاه المغاير لسير السيارات، وكان الفضاء واسعاً ابتعد عن نقطة تحركة الأولى، خيّل

مكتبة الفكر الجديد

إليه أنه يسير عكس حركة الناس وأن قدميه تسوقانه نحو المجهول، ارتعد لورود هذه الفكره في رأسه، كانت ثمة تفجيرات مدوّية تُسمع من بعيد (امتازت أيّام هذا العام بكثرة التفجيرات في الشوارع وبالقرب من الأسواق والمقاهي الممتلئة بالروّاد وبعض الطلبة، وكذلك رجال الأعمال، وطالت التفجيرات أيضاً المساجد والحسينيّات والكنائس وامتدت أعمال التخريب والترويع إلى مناح عديدة، لم تستطع الحكومة السيطرة على ما خلّفته التفجيرات من فوضى عارمة فتركت أمرها إلى القدر لعلّه يحسم هذه القضية المدوّخة للجميع)، و لم تخلُ الطرقات من فوضى السيارات المارقة أو تلك التي تجري مندفعة باتجاه المستشفيات، لتحمل العديد من الجرحى والمصابين، بالرضوض والكسور، أو من فاقدي الوعي، أو الذين انقطعت بهم السبل ساعة يعمّ الهرج والمرج بين الناس كلّما تشظّت الانفجارات وارتفعت المأساة إلى القمة، بحيث يشتد التدافع أو النداء المستغيث.

في ذلك اليوم الذي غادر فيه عبد الله منزل العائلة في حيّ البيّاع، سمع الكثير من الكلام عن رجال ونساء يعملن لحساب جماعات من خارج البلد يورّطن أولاداً وفتياناً يافعين، ليصبحوا ضحايا ميسورة لجماعات تعمل على ذلك النهج الذي يثير الهلع في نفوس الآخرين، وعادة، حين يكون وحيداً يفكر بأقرب الأصدقاء والمحبين وكان أبرزهم في قائمة المغتربين أو المنفيين ذلك المترجم الصموت الذي اتفق وإياه لكي يعملا المستحيل في ألا يذهبا للقتال في حرب العراق على الكويت، ولما اشتدّ الوغى قبل غزو القوات العراقية للبلد الآخر، قال المترجم لصديقه:

– اسمع يا عبد الله واضح أن الناس هنا مغلوب على أمرهم ولا أمل لهم أن يفيقوا من هذا السبات الطويل – كان عبد الله يصغي بكل جوارحه ولا يكفّ عن تحريك رأسه باهتزازات متقطعة يميناً وشمالاً – الذي يعيشون

مكتبة الفكر الجديد

فيه منذ قرونٍ خلت.

وسأله عن الذي يدور في رأسه، وضع المترجم يده على ذراع عبد الله، ثم تبادلا النظرات الجادة والحائرة أيضاً، قال المترجم والجزع واضح على محيّاه:

– سأهجر البلد لن أستطيع العيش بعد الآن هنا، ألا ترى كيف تزداد أعداد اللصوص والقتلة؟ أعني اتّساع رقعة الجبروت وتسلّط الحكومة، يوماً بعد يوم.

– إلى أيّ بلد من بلدان العالم ستلجأ؟

– حتى الآن لم أفكر في الأرض التي سأعيش فيها، غير أني أطمح في أن أحط الركاب في أي أرض من أوروبا.

– عليك أن تسعى لأجل تحقيق ذلك.

غير أن عبد الله فوجئ برحيل صديقه المترجم، خارج البلد ومنذ ذلك اليوم أدرك أنه سيبقى وحيداً، ولن يجد من سيعينه على تحمل مصاعب هذه الحياة التي تزداد صعوبة كل يوم وهو يرى ويسمع الكثير عن الناس ومن أجيال مختلفة وقوميات وأديان، كلّها نشطت في الهجرة إلى الخارج ولقد أغرتهم تسميات لم يألفوها من قبل كالمنفى والهجرة والذهاب إلى أقصى المعمورة بدل البقاء في أعلى قمّة في الخراب الوطني وبصورة يومية ودائمة وقال لنفسه والحزن يعصر قلبه: ماذا لو كان الكاتب المسرحي بيتر فايس يعيش بين ظهرانينا لكتب مسرحية توازي مسرحيته الشهيرة (مارا– ساد) التي كان معجباً بها وقد قرأها مرتين متتاليتين والحق أن الكاتب أذهله بطريقة استخدام الوثيقة وكيفية المعالجة المسرحية للنص، ويتذكر محاولته في تقليد (مارا –ساد) وكانت محاولة يتيمة لم يعاود تكرارها من جديد وفكّر في كتابة مسرحية اجتماعية على غرار مسرحية (المفتاح) للفنان

مكتبة الفكر الجديد

يوسف العاني ووجد صعوبة التفكير في مسرحيات مثل مسرحية (بغداد الأزل بين الجد والهزل) وأنّ الفنان قاسم محمد مولع في التجريب المسرحي وأن لا أحد يستطيع أن يجاريه في هذا الولع.. وعليه وحين اشتد تفكيره فيما حوله من أمور وحالات فوق طاقته على التصوّر انحسر لديه التفكير في أن يتدبر أمره وأن لا يستسلم للأشياء المحيطة به والمفاجئة له إذا ما قرر البقاء هنا في هذا البلد الذي لا يشبه أي بلد آخر في العالم أبداً.. غير أن السؤال الذي ظلّ يلازم تفكيره، وغالباً ما يتكرّر في مخيلته وإن جاء بصيغ مختلفة: – لماذا لم أفعل مثلما فعل ذلك الرهط من البشر الذين ارتضوا ديار الغربة مأوىً لهم؟ ألا يستطيع أن يعيد الدفء إلى تلك الأحلام المتلاشية؟ هو لا يصدق كيف استطاع صديقه المترجم أن يعدّ العدّة وينقذ نفسه من الفوضى والموت؟ كان عليه أن يساهم في إعانة العائلة، المكونة من خمسة أشخاص هو أكبرهم وقد سجل رقما مذهلاً في زواجه الفاشل، ولم يكفّ يوماً من إلقاء اللوم على الأقدار، التي لم تنصح معه ولو بالمصادفة، دائماً يصفه بالزواج التقليدي. كان حرياً به ألا يتورط بمشروع كهذا، وكانت سحابة كثيفة من الحزن تجتاحه حين يتذكر ما جرى معه وما حصل من عثرات، أصبح من الصعب عليه أن ينسى تلك الأيام العسيرة على الهضم كما يصفها كلّما تذكر جانباً منها، وهي – الزوجة – قد فاجأته بعدم معرفتها للقراءة والكتابة بالمرة وسخريتها من كتبه وأوراقه وبيد متعالية تقلبها مستهزئة به وبالذي جمعه من كتب الآخرين، وهي ذات السخرية به وبعالمه حين تراه يكتب، ساعتها تعلن بوضوح عن عمق الاستخفاف بما يدون من ملاحظات، ماذا تكتب يا مسكين؟ ويحاول إلا يشركها في ما توصّل إليه من حوار أو وصف، وحين يزداد إصرارها على معرفة ما بيده، يدفعها برفق:

– أنت لا تفهمين ما أفعله بهذه الأوراق؟

مكتبة الفكر الجديد

وكانت الزوجة الشابة تنفجر بالضحك من عباراته التي تبدو غامضة عليها خصوصاً حين يزيد من اعتزازه بأوراقه ودفاتره وبعض من قرطاسية متفرقة، لكنها تعلم حقيقة مصرعه، حين تتعرّى أمامه وتكشف عن جسدها البض الممتلئ ببشرته الفاتنة، كانت تنظر إليه متحدية إياه حيث تراه وقد احمرّت وجنتاه واتسعت فتحتا الأنف إلى الحد الذي يصعب عليه أن يبقى هادئاً وهي أمامه تتقلب على الفراش بكتفيها ونهديها بعنقها المشرئب نحوه، كذلك تحاول صرعه حين تنكفئ على بطنها وتنظر إليه بعين واحده وجسدها من القفا يتحرك ويتوهج تحت حرارة وقسوة نظراته، يندفع إليها مزمجراً وهي تمانع بقوة شديدة، تقول له: لا تلمسني ما لم تخبرني من تحب أكثر من الآخر، أنا أم دفاترك؟ يصرعه السؤال ويجعله في ظلام دامس ويعجز عن تهيئة الجواب، تقول له وبصوت هادئ هذه المرة.. يحاول أن يخلق له تأثيراً عليها، إذ تمتد يده إليها، إلى منطقة البطن ويلامس بعناد قوي أسفل البطن حتى تصل أصابعه غابة الأسرار، وهي تموء تحت تأثير ملامسته واقترابه منها حد التصاقه بها حين لحظة التوتر والارتواء يبدأ بفك أزرار ثيابه، تفاجئه بمواء آخر:

– عبد الله أريد منك طفلاً!

– ليس السبب مني بل أنتِ لم تذهبي إلى الفحص الطبي!!

– أبداً أمي تقول ليس فينا من هو عديم الذرية!

– يا مجنونة أمك لا تفهم أكثر من العلم.

– أمي تفهم أحسن من أي طبيب تعرفه أنت أو أهلك!

– ما دخل الأهل في موضوع الأولاد والولادة؟

– أنا لا أثق بأهلك أبداً وهم يمنعونك من الذهاب إلى الفحص الطبي..

كانت يده قد انسحبت مدحورة وتوقفت عن خلع ثيابه:

مكتبة الفكر الجديد

– وهل أهلك أكثر علماً من أهلي؟

تنتفض وهي ما تزال عارية في الفراش، تنقلب ثانية وتعدل ومن وضعها، تصبح في مواجهة معه وعيناها تقدحان شرراً:

– أنت حتى لا تعرف أن ترضيني في الفراش.

يضحك عبد الله وتعاوده سخونة الجسد من جديد وتمتد يده نحوها لملامسة جسدها الممتلئ، الذي يشتهيه ولكن لا يجد محبة واضحة تجاه هذا الجسد الجاحد والباذخ بالجنس، تدفعه بقوة، يدرك أنها تشتهي أن تؤخذ بعنف، أن يرغمها على الاستجابة لتوتره، يتردد في أن يلقنها درساً في حالات من هذا النوع، لأنه يحب أن يمارس معها دون أن يفقد كياسته، وكان إذا ما تعرى فإنه يخفي عنها مؤخرته لأنه يشعر أنها سوف تجعل من هذا الجزء من جسده هزأة، دائما كان ينقلب على قفاه ويترك واجهته تحت تصرفها، كان ذلك يثير لديها مزيداً من الضحك والسخرية منه، لأنها تزداد رغبة برؤية مؤخرته التي تبدو خلاف مؤخرتها، تقول له:

– لقد رأيتها إنها سمراء كأنك تركتها وحدها أيام عديدة تحت الشمس، دعني ألامسها.

يدفعها بقوّة عنه ويقول لها: – إن هذا أمر معيب!

– لماذا معيب؟ لا يوجد عيب بين الزوج وزوجته!

– انا أستحي من هذه التصرفات.

– أنا لا أحب أن يكون زوجي خجولاً، أريد منه أن يلوي ذراعي ويأخذني بقوة.

– هل أنت من عشاق الداحس والغبراء؟

ترتدي ثيابها وتنهض، تاركة السيد عبد الله في حسرة التمني وربما

مكتبة الفكر الجديد

الندم! وسأله صديقه المترجم ذات يوم:

– ألم تكن واعياً لخطوة كهذه؟ كيف اقتنعت بالزواج من فتاة لا تحسن كتابة اسمها؟ ولا تعرف أين يقع باب المعظم. وقال له عبد الله، ليس الأمر مرتبط بباب المعظم يا صاحبي، لقد كانت امرأة غبية، إذا سمحت لنفسي الكلام عنها بهذه الصراحة، كثيراً ما اعتبرت الأمر إما غالب أو مغلوب، لعلّ ما كان يزيد عليّ الخناق دعوتها إلى أن يتدخل أهلها في حياتنا اليومية مما يجعل الأشياء تختلط مع بعضها، بحيث يغدو من المتعذر على أفراد عائلتي، أمي وأبي خصوصاً عدم المقدرة على التدخل لفض النزاع.. تلك أيام لا أود تذكرها أو استرجاع بعض من مشاهدها.. قال لنفسه بنوع من اعتزاز وفخر: كل هذا ينبغي أن يكتب في رواية أو في مسرحية وعلى المؤلف أن يكون حاسماً في قراره وإلا يتوانى في إدانة الظلم والجبروت، في أي زمان ومكان وأنه قرأ الكثير من المسرحيات المتشائمة و المتفائلة..

إنه الآن يقترب من الأربعين من عمره وهو ما زال يعمل موظفاً في دائرة السينما والمسرح والمرتب الشهري مصدر قلق له لأنه لا يفي بالغرض المطلوب وقال له أحد زملائه من الممثلين الذين يطلق عليهم عبد الله بالممثل العوازه (يعني به الممثل الذي لا يعطى عملا أو دوراً في مسرحية إلا إذا احتاج مخرج المسرحية إلى ممثل ثانوي):

صديقي عبد الله من حسن حظك، أنت لا تدخن ولا تتناول المنكر، وعليه فالمرتب يكفيك!

وانفجر عبد الله بضحكة قوية تعمّد أن يطلقها بوجه الزميل العوازه، ورد عليه متسائلاً:

– هل تصورتني مجرد آلة صماء؟ كيف فكرت بالأمر؟ وإذا لم أدخن هل المرتب يصبح كافياً للعيش الرغيد؟ وهل الذين لا يدخنون ولا يتناولون الخمرة هم أثرياء حسب نظريتك الاقتصادية المدهشة؟ وانتفض الممثل

مكتبة الفكر الجديد

بوجه عبد الله: – هل شتمتك أم كفرت بالفن العظيم، أعرف يا صديقي أن المدخنين ومتعاطي المنكر غالباً ما يقولون: أن مرتبهم الشهري لا يسد الرمق ولو سألتني ما معنى رمق لما عرفت ولكن الجميع يتلفظ ما يمكن أن يوحي بالحاجة إلى الاستعانة بمصدر ثانٍ لمساعدة المرتب.

حين فكر عبد الله بما يحصل عليه من دائرة السينما والمسرح لا يفي بالغرض المطلوب وأنه ليس صحيحاً الاستمرار في العيش في بيت الوالد، وأن صديقه المترجم يعمل الآن موظفاً مرموقاً في المنظمه العربية لحقوق الإنسان، أما هو المواطن المغلوب على أمره، ليس أمامه سوى أن يجري منطلقاً عبر الحقول والبساتين لا يلوي على شئ غير صوت إطلاق نار، عندئذ أدرك إلا مفر من زيادة سرعته باتجاه الشارع العام وعليه الوصول إلى أيّ مبنى يوحي بالثقة لكي يأخذ نفساً عميقاً.. لم تكن شمس أكتوبر قويه أو شديدة الوطأة عليه، لكنه وبسبب عدم توقفه عن الجري السريع متلاحق الخطوات داهمه خوف شديد من وقوعه بين أيديهم، تلك اللحظة، رأى ثلاث سيارات منطلقه عبر الشارع العام، ومن خشيته ارتمى على الأرض، وهو يشاهد السيارات كيف اختفت في الأفق البعيد، ولبرهة خيّل إليه انهم أحكموا الطوق حوله، عليه بالمزيد من الحذر لئلّا يقع بين أيديهم لقمة سائغة، يقيناً ما زالوا يتبعون خطواته، وهم يعلمون أنه لم يتخطى في فراره منهم وهربه من أسرهم و لم يبتعد عن ربوعهم نحو ديار وربوع أخرى.. أدرك أن الخوف منهم قد هدم آماله في الخلاص من سطوة أسرهم له ولا مفرّ من إعادته من قبلهم إلى الجحر الذي غادره حالما فتحت له كوة في الجدار.. ترى ما اسم الفتاة التي خاطرت بحياتها من أجل إنقاذه من موت محقق حيث لا أحد من أسرته يستطيع افتداءه بالمبلغ النقدي المطلوب، لكنهم لم يحدّدوا أي مبلغ من المال يطلبون؟ إنه الآن خارج الطوق مهما زادوا الخناق عليه.. ألم يكن الأجدر بك أن تعرف اسمها الصريح؟ إلا تظن أنها تلفظت اسم فاطمة؟ اه نعم نعم هذا هو

مكتبة الفكر الجديد

اسمها الذي همست به أمامي، فاطمة قالته على استحياء، وقد ألححت عليها بمعرفة اسمها، بعدها دفعتني خارج الأسر.. لعلها لا تعلم أني الآن أتخطى الأرض المسماة (سبع البور) وأتركها وراني، وأنطلق نحو قدري، نحو المجهول، لعل الحظ يقف إلى جانبي في محنتي وبلواي. وتساءل عن تلك القوة المهيمنة في تلك الأنحاء، التي لم تطأها قدماه من قبل كيف استطاعوا أن يخطفوه من وسط الشارع، كان قد سمع الكثير من الحكايات والأخبار عن خصومات ومكائد وخلايا إرهابية ميتة استيقظت خلال السنتين الأخيرتين، وتناقل الناس فيما بينهم المزيد من الكلام عن مكائد نصبها أشخاص لأصحابهم ومعارفهم، وخامره الشك في أنه ضحية احتيال أو محاولة من الولد رياض للتخلص منه لصلته بابنة أخته التي أصبحت في ورطة كبيرة إذا ما انتهت السنه الدراسية، دون أن تفضي علاقتها بزميلها رياض إلى بر الأمان، وتساءل: ما الذي ستفعله فتاة في العشرين من عمرها، حين يتناقل الناس بينهم كلاماً لا يليق بالفتيات الصغيرات. وشعر لأول مرة بضيق يثقل عليه تنفسه، إنه يجري مسرعاً واللهاث يتصاعد في نشيد الشهيق والزفير ورأى على البعد، في الجانب الأيمن من جريه المتلاحق ثمة امرأة ملفعة بالسواد وقد امتطت دابة جعلتها تسير الهوينا في الطريق الترابي، تظهر المرأة وتغيب بين الحفر والأشجار المتناثرة على جانبي الطريق الميسمي بتعرجاته الكثيرة لتختفي ثانية، وهو يتسارع في خطاه وقد أنهكه الجري الطويل.. هل المرأة على الدابة (تبدو من بعيد كشبح يقترب من مكمن عبد الله، يدنو الشبح شيئاً فشيئاً وإن كان بصورة منحرفة، تحت الضوء الساطع لشمس تزداد حرارتها، مع مرور الوقت) هو رجل متنكر بهيئة امرأة لكي يطمئن إليه الطريد ويقع في الفخ ثانية، وللمرة الثالثة وربما الرابعة انتبه فيها لنفسه يتعثر خلال سيره في تلك الوهاد النائية والبعيدة عن بيته في حي البياع، لماذا لم يأخذوه إلى أماكن قريبة من البياع؟ أتراهم لا يملكون أوكاراً

مكتبة الفكر الجديد

أخرى؟ غير هذا الذي ألقوه فيه، كما يلقى طائر مثخن الجراح أو موثوق الجناحين، طائر لا يملك من حق الاعتراض أي شئ، غير أن الحظ حالفه هذه المرة واستطاع الهرب بفضل تلك الفتاة التي اسمها فاطمة على ما يظن وينطلق في هذا الفضاء الذي يجهل حدوده وطبيعة ساكنيه، ألم يجدوا وسيلة أخرى غير اختطافه ورميه في المجهول؟ لقد ملأته ساعات تواجده في مكان اختطافه رعباً وكاد ينهار في ذلك الجحر الذي لم يصدق أنه أمضى فيه ليلة والساعات الأولى من نهاره هذا، لتأتي إليه فاطمة وتطلق ساقيه في سباق مع الريح.. وهذا الحقل الشاسع يمكن أن يخفيه و يتطامن معه واطمأن إليه في هذه اللحظة بالذات، جعله أكثر حذراً مما كان يتوقع، يا الهي، ثلاثة رجال أشداء وامرأة على دابة (أليس هذا بالأمر المثير للريبة؟) ومن الجائز أن يظهر رجال آخرون، ويتجسد المشهد دون نقصان، في مطاردة بينه وبينهم، لا يتمناها إذ سيكون هو الخاسر إذا ما أدركوه لكنه حتى الآن كانه في مأمن منهم ليعتمد على قوته في زحفه الحثيث، زحف نحو الأسفل، نحو الأرض الجرداء التي لا يوجد فيها شئ يحميه أو يخفيه عنهم، عن العيون الباحثة عنه، العيون التي لها مقدرة رؤية الظل على بعد فراسخ، فكيف الحل معه، أخذ يزيد من انحناءته قليلاً قليلاً حتى لامست جبهته تراب الأرض، لم يعد أمامه إلا بضعة امتار ويصبح في الجانب الأمين، كان هدفه الآن الوصول إلى إحدى المزارع القريبة منه حيث الزرع يصل في ارتفاعه حد ركبتيه، هناك يمكنه أن يكون في مأمن من الخطر المحدق به، يمكنه أن يختفي لوقت كاف. حتى يتجاوز الخطر المتوقع القادم مع الرجال الثلاثة والمرأة التي تبين أنها معهم، ذلك لأن أحدهم انتظرها عند الطريق الترابي الفاصل بين المزارع والأرض الجرداء.. الويل له لو أُخذ على حين غفلة، لن يجد من ينتشله من نهاية محققة على أيديهم، أتراه لا يتذكر ذلك النهار الجاني كما أطلق عليه يوم اختطفوه، عندما جندلوه بضربة واحدة، وعلى مبعدة

مكتبة الفكر الجديد

شاهد الرجال الثلاثة يحثون الخطى في تسارع مطرد باتجاه الطريق العام، نعم تيقن أنه في الاتجاه الصحيح، سوف تحط اقدامه على الطريق إلى بغداد لا محال، لكن ظهور ثلاثة رجال في المشهد الذي سدد أحدهم ضربة قوية إلى رأسه جعله يترنح لبعض الوقت، لعلّه يتذكر (الآن) بصورة جيدة كيف ارتطمت جبهته بالأرض وقدماه لم تعيناه بل خبط بذراعيه تراب الطريق في حي البياع بالقرب من سينما اليرموك متجهاً نحو سيارات الأجرة.. أغمي عليه وفقد الوعي و لم يفق إلا في ذلك الجحر المظلم الذي أنقذته فاطمة من عفونته القاتلة وظلامه الذي ملأ فؤاده باليأس والتعاسة، حاول أن يستعيد أشكالهم وصورهم عندما تتبعوا خطواته، حالما استدار على قدميه، لم يكن ثمة أحد بالقرب منه حين زحفت سيارة بأرقام مؤقتة، تذكرها جيداً ذات لون أزرق كلون السماء حين تكون ملبدة بالغيوم، شاهد منهم جانباً وكيف هبط منها ثلاثة رجال أشداء واضح تمرّسهم في الأفعال الدمويه وتسوية الحساب الذي يعنيهم أو كانوا قد خططوا له من قبل، في تلك اللحظة التي منعته فيها كبرياء لا معنى لها من الاستدارة إلى الخلف لمعرفة ما يجري من ورائه، في التو تلقّى ضربة على الرأس طوحت به إلى الأرض جعلته بعيداً عمّا يجري من حوله، يتذكر أيضاً أنه أصدر نوعاً من الأنين أو الصرخة التي لم يتوقعها.. في تلك اللحظة جاءت سيارة (GMC)، مندفعة من تلك البيوت، ولحق سائقها بالمرأة التي تمتطي دابة في الطريق، والرجال الثلاثة حولها يتشاورون ولا بد أن الحيرة أكلت قلوبهم، وحين وصلت سيارة الجمسي إلى ذلك المكان الذي تقف فيه الدابة والمرأة والرجال الثلاثة، هبط رجل (غير السائق) ونزع عن رأسه العقال واليشماغ وألقى بهما أمام الرجال الثلاثة ثم رفع إحدى قدميه وداسهما وقد كرر فعلته هذه مرات عدة. ومن مخبئه في المزرعة التي لم يكن قد خطط للوصول إليها، إنما حصل ذلك بمحض المصادفة التي فرضتها عليه ما أسماه بالضرورة، يراهم عبد الله كيف يتلفتون ويجيلون

مكتبة الفكر الجديد

النظر يميناً وشمالاً، أدرك بما لا يقبل الشك أنهم يبحثون عنه لاصطياده ثانية، سوف يذبح الطائر المنفلت، يذبح كالشاة.. (يا الهي إني ألوذ بحماك) وهو في مكمنه ذاك صاح يخاطب كائناً خارقاً، ثم عاود مناجاة ربّه من جديد (الهي لماذا تخليت عني؟) قال لنفسه: إنها صيحة السيد المسيح أيها المسرحي الطيب.. ولما شاهد عدداً آخر من الرؤوس، وقد اشرأب بعضها يبحث أو يتلفت من حوله، شعر لأول مرة برغبة في البكاء، تمنى إجهاشة ينفض فيها كل غبار السنين التي لم يذق فيها طعماً للسعادة في كل ما عاشه من أيام منصرمة عانى مرارات الفشل والمحنة في مجتمع لا يرى في حياته بريق أمل في أن يقدم للناس ما يعرفه من جلال الحكمة المدخرة في ما قرأه وسمعه أو درسه وتعلمه من أساتذته المعروف عنهم الصبر والغوص في النفس البشريه عبر الكثير من المسرحيات العالمية الشهيرة، ولكن قل لي يا سيد عبد الله هل أنت تهرف بما لا تعرف الآن؟ بماذا تفيدك المسرحيات التي تتحدث عنها بحسرة ووجع؟ هل بإمكانك الفرار من المصيدة؟ في خلاصك مما أسميته المصيدة.. ترى ما الذي تفعله البنت التي اسمها فاطمة هناك، هل تراها أسيرة هي الأخرى أصحيح أنها جاءتك تنفيذاً لخطة مرسومة أو قرار بالمتابعة لغرض خفي؟ وما هي حدود تلك الخطة المعني بها تقويض أركان مجموعة مسلحة، وهل تصلح لها بنت مثل فاطمة، إلا تبدو في هيئتها المتواضعة بل يمكن القول أن الفتاة، كما رآها عبد الله في تلك اللحظة السريعة الخاطفة لا تتجاوز وصف فتاة مغلوب على أمرها، غير أنه فوجئ حين دفعته خارجاً بقوة أثارته بحزمها المدهش، ولما تشبث بإطار الباب، أصر على معرفة اسمها، جاءه الصوت كالهمس: فاطمة، وقد حمل له الصوت أكثر من لون ونغمة، وفكر جاداً أنه بهروبه هذا إنما يرضي بفقدانها وليس بعيداً أنه سيفتقدها إلى الأبد وداخله حنين غريب لرؤيتها ولكن هيهات، فخاطفوه ما زالوا يتربّصون به وينتظرون اقتناصه من جديد، فكيف التفكير بالعودة إلى تلك الديار

مكتبة الفكر الجديد

لرؤيتها حيث حتفه بانتظاره حال تورطه بالعودة المغامرة كما أطلق عليها، لكنه تذكر كيف دفعته خارج الدار بقوّة وهي توشك أن تصرخ به: اهرب بجلدك يا مسكين، اسمي فاطمة أستطيع الخلاص وحدي، انطلق أرجوك.. عندئذ شاهد عبد الله كيف نزل السائق من سيارة الجمسي واتجه نحو الجماعة التي بدا الإصرار على وجوههم في ضرورة القبض عليه قبل وصوله إلى أهله أو نقطة سيطرة للجيش أو أحد مراكز الشرطة، كانت سيقان النباتات وأوراقها تغطيه كلّما التصق بالأرض أكثر أو حين يصبح جزءاً من الزرع المتطاول ومن خلال تلك الحماية التي وجد نفسه فيها وباستطاعته رؤية خاطفيه وقد اكتووا بنار الخيبة من الوصول إليه، تذكر كيف اندفع منطلقاً كالمجنون في بداية انطلاقته نحو المزارع والأحراش على أمل الوصول إلى الشارع العام أو نحو المجهول كما فكر، تاركاً لساقيه أن ينقذاه ويبعداه عن مكامن الخطر، سهم منطلق في الريح وهم في وقفتهم تلك ظلّوا يتلفتون نحو الجهات كلها ولكن دون جدوى فقد التصق بالأرض، تمنى لو كان لديه ناظور لشاهد وجوههم وكيف ترتسم التعابير المفزعة. كانوا يتحركون أمام عينيه رغم المسافة الفاصلة بينهم، تبين له حشدهم، وتبين أن المرأة من جماعتهم، ثانية قفزت صورة فاطمة إلى ذهنه، أتراها هربت أم أنهم أحكموا وثاقها؟ ولما ركز التفكير بها خطرت في رأسه أنها لا شك تنفذ خطة متقنة، بحيث هربت إلى ديار لا يعرفها، ولا يهمه إن كانت فاطمه قد احتمت بعائلتها أم بناس آخرين، جلّ تفكيره انحسر في سلامتها، وقال لنفسه: لا تبتئس لأجلها فهي أقدر على إنقاذ نفسها، .. ثانية شاهدهم يلتمون حول المرأة وهي على الدابة، أتراها هي التي تقود عمليات الاختطاف مقابل فدية؟ آه، يتذكر الآن ما قالته فاطمه: الويل لك لو قبضوا عليك، حتى مبلغ الفدية النقدي لن ينفعك، هيا اهرب يامسكين. إذن هم مجرد عصابة أو فريق يقتنص الفرص كلّما سادت الفوضى في الجوار انتعشت أعمالهم

مكتبة الفكر الجديد

التي لا يردعهم عنها قانون ولا دستور، كل هذا ينبغي أن يكتب في رواية أو مسرحية أيها المسرحي، وتاقت روحه إلى رفقة المسرح وتصور نفسه وهو يدخل باب المسرح الكبير (المسرح الوطني) وهواء بارد خفيف يستقبله بنسمات عذبة وضحكة أنثوية تتفجر في الأنحاء ودائماً ثمة تفجر لضحكات مفاجئة له وكان يقول لنفسه تلك شيمة المسرحيين الحفر في جسد الفرح وإشاعته بين الناس لكنه الآن في قبضة الموت، ترى هل يحالفه القدر وينقذ حياته من القصاص؟ ممنى أن يكون ما يجري معه الآن ما هو إلا جزء من مسرحية سعى لتأليفها الكاتب عادل كاظم كوميدية أو تراجيدية يمثل بها عبد الله دور الضحية. عادت المرأة على الدابة إلى حيث أتت تسوق دابتها بعصا غليظة، إذن لم تكن المرأة رجلاً متنكراً بثياب امرأة، لكن الرجال الثلاثة وكذلك رجل سيارة الجمسي توزعوا في اتجاهين، اللعنة، ها هم يتوزعون مهمات القبض عليه وشاهد سائق السيارة ورجل الشماغ والعقال يتجهان نحو طريق المزرعة متخذين الوجهة التي يتنفس فيها عبد الله، أنفاساً ثقيلة يسمعها تتردد ولها صدىً لا ينقطع في أذنيه، كذلك دقات قلبه لا تريد أن تهدأ، كانوا بعيدين عنه، لا بد أنهم واهمون فيما يخص مقدرته على الفدية، ترى هل يوجد من نقل إليهم معلومات زائفة عنه، أتراه المخبر السرّي؟ يا لسوء الحظ يا عبد الله كيف اعتقدوا أنك ثريّ، ميسور الحال؟ وتبسم بمرارة حين تذكر محاولته الأولى، في كتابة مسرحية عن الإرهاب، وقد سلّمها إلى لجنة فحص النصوص المسرحية، ولم يمض أكثر من شهر تنقلت بين أعضاء اللجنة لتأتي النتيجة مخيبة لآماله وما كان ينتظره من قرار، قد يرفع من مكانته بين أقرانه أو أن يفوز بنجاح في هذا المجال الذي يعشقه، غير أن النتيجة المحزنة جعلته يعيد حساباته من جديد فيما يخص المسرح وأي الطرق ينبغي أن يتخذ في القابل من الأيام وكان تخرجه في منتصف التسعينيات من القرن العشرين، بدفع من عوامل كثيرة لعل الهدايا الخاصة

مكتبة الفكر الجديد

من بينها، أو محاولات التوسط لدى عدد من الأساتذة وكان أخطر اللعب هي السياسية إحداهن وإن كانت بعدم رضاه أو ما أسماه في لحظة توافق وانسجام مع نفسه اللا قناعة بما يقوم به من أفعال قد تصب في مصلحة السياسة أو المنفعة الشخصية، يومها لم يكن راضياً عن نفسه غير أنه كان يدرك مدى ابتعاده عن ذلك العلم الذي يتسم بالصرامة والجدية وأيضاً الانتهازية التي يكرهها من أعماقه، غير أن عالمه الشخصي لم يكن مقصوراً على انتهاز الفرص بل كانت له فضائل الوقوف إلى جانب الكثير من الطلبة، خصوصاً المتفوقين منهم، والغريب أن العديد من زميلاته كن يقفن إلى جانبه فيما يصدر عنه من أفعال يجدن لها تبريراً مقنعاً ما دامت تصب في مصلحة الطلبة دون الإساءة لأحد، كان ذلك في زمن الأكاديمية، حيث الدولة تدعو إلى معسكرة الشعب، وحيث يسود فكر واحد وكل شئ بقبضة رجل واحد، فلا مجال لإعلان التمرد إلا إذا قرر عبد الله التخلي عن كل ما يمت للفن بأواصر حميمية، (دائماً كان يدفع نفسه للرضا عن أفعاله أو ما يقوم به من أعمال حتى لو جاءت لخدمة الآخرين) أنا خلقت لأجل الفن، وأن أشخاصاً لهم الحساسية المفرطة مثلي، لا يمكنهم الانسجام مع الآخرين، فكيف الحال مع دهاليز السياسة التي لا أجد لها مبرراً واحداً للكثير من أفعالها، الفن هو المصحة المناسبة لأمراضنا وعللنا التي ابتلينا بها منذ تفتحت عيوننا على فاعلية الفن في حياتنا الخاصة والعامة، وتساءل ماذا باستطاعة الإنسان أن يحيى في الفن وحده؟ الآن وهو في هذا الكابوس الخانق، داخل حدود المطاردة الضيقة يتساءل عن مقدرة الفن – الذي لا يكف عن الدفاع عنه – هل ينقذه الفن من ورطته التي جعلته في حالة من الخوف بل الهلع كلّما تخيل وقوعه بين أيديهم، يشعر أنه فريسة رعب لا يحتمل، لا شك سيجعلون منه محطة للسخرية بينهم، محال أن يحصل هذا أبداً، ترى ماذا سيقول لفاطمة؟ لو شاهدته وهم يجرجرونه أو يسوقونه كما الشاة إلى المسلخ، وصدرت منه

مكتبة الفكر الجديد

آه طويلة، جعلته يفيق من غفلته أو غفوته، ولما انتبه لميدان القنص أمامه، شاهد سيارة الجمسي تتخذ طريقاً ترابياً غير سالك بالمرة طريقاً مليئاً بالحفر والأخاديد والأتربة، التي تتطاير حول السائق وزميله صاحب اليشماغ والعقال اللذين تلقتهما الأرض بحركة انفعالية غير متوقعة، الآن يريد الزحف باتجاه اليسار ليصبح على مقربه من الطريق العام، لكن ماذا لو شاهدوه وهو يندفع نحو غايته ومرماه، إلا يمكنهم إعادته إلى حظيرتهم ثانية؟ كم سيدوم تعذيبه لو حطت أيديهم عليه وهو متلبس في جرم الهرب منهم، كم سيتلقى من سياط لا يحتملها وقد تدفعه قسوة الضرب إلى البكاء أمامهم، ربما سيصمد أمام جبروتهم وطغيانهم واستفرادهم به؟ لكن من يضمن استمرار مقاومته لهم؟ إذن، الأفضل له الخلاص منهم والانطلاق مثل سهم حر لن يوقفه أحد. اختفى الرجال الثلاثة من أمام ناظريه (يقيناً غفل عنهم) أي جهة سلكوا وأين هم؟ أتراهم أدركوا المكان، مكمنه الخاص وبقدر ما غاب الرجال الثلاثة، واختفت المرأة صاحبة الدابة في ثنايا البيوت القليلة المتفرقة بين المزارع، كان قد وضع سيارة الجمسي تحت ناظريه ودون إهمال مراقبتها وبين الحين والآخر يطل الرجل من النافذة المفتوحة على فضاء موحش وسقيم، فضاء لا يسمح لأحد أن يلتقط أنفاسه ليهرب من مختطفيه والشمس حرارتها بدأت ترتفع وبعد قليل سيأخذه العطش، زحفه الوئيد مكلل بالأمل وانتبه إلى أنه جاء على مسافة لا يستهان بها من الزحف بالاتجاه الصحيح وحين رفع رأسه مضطراً ليرى ما يجري من حوله، شاهد عدداً من السيارات المارقة في الطريق العام، في حالة سباق مفتوح، وتمنى لو كان جسده يستقر الآن، في إحدى تلك السيارات المسرعة سوف يختفي ويغيب عن أنظارهم، وخمّن مع نفسه أن لا بد ويكون الرجل صاحب اليشماغ يحمل سلاحاً نارياً، وربما السائق هو الآخر يتمنطق بسلاح يحمله أينما حل أو ارتحل، وقال لنفسه بثقة تامة: لا يهم أستطيع التخلص منهما شرط

مكتبة الفكر الجديد

إلا يستولي عليّ الخوف من المجهول، بل أن تكون ثقتي بنفسي عالية، لست مراهقاً يذهب ضحية تهوره أو رعونته، وها أنا أرى مصيري كيف استقر بين يديّ وأن هذا المصير سيتجه للفوز بحريته لا محال.. تعالى هدير سيارة الجمسي وقد أصغى بكل جوارحه و مخاوفه لذلك الهدير المثير للفزع إذا ما أسلم عقله إلى صخب مشاعره وتصوراته في أنهم في الطريق إليه، مما زاد من التصاقه بأرض المزرعة، كان هذا مخبأ مناسباً له ولكن ماذا لو اكتشفوا ذلك المخبأ المفتوح على المدى.. لكن هيهات أن يستسلم لإرادتهم، يفضل الموت هنا في هذه البرية شاسعة الحدود، ما اسمها سبع البور؟ يا الهي من أين لهم بهذه الأسماء؟ (إذن لن يسمعه أحد إذا صاح أو صرخ) لن ينفعه طلب الاستغاثه أو النداء إذن، تصورهم كيف يلتمون حوله فجأة، ينبعون من باطن الأرض الشرسة التي حاصرته فيها فوهات البنادق والمسدسات، تتجه نحو رأسه وصدغه والعيون الشامتة تنظر إليه بسخرية لا تطاق ولا تحتمل، لأن ليس من ورائها إلا الموت الزؤام، ترى هل يحتمل ما سيأتي بعد إلقاء القبض عليه؟ إلا تعلم، هنا في أرض الصمت هذه يولد المرء ويموت دون ضجة أو عويل بل كل شئ يسير حسب مشيئة الله، إلا تعرف هذا أيضاً؟ إلى أين كنت تنوي الذهاب؟ مع من كان لديك موعد؟ في باب المعظم، في كلية التربية. هل نسيت الموعد الذي تحول إلى رصد واختطاف؟ وأعاد الشريط كله في ذهنه ثانية وأدار عشرات الصور في رأسه، وأخذته الحيرة من شريط طويل مر به، عن أشخاص خدعوه أو سخروا منه فيما مضى من أيام، أصدقاء كان يتصورهم بحق أراد أن يظهر لمختطفيه ويعلن تحديه لهم، عندما خدعه أحد أصدقائه، ووعده أن يسند إليه أحب الأدوار المسرحية، دور هاملت، الذي تمنى القيام به لأنه (كما يعتقد منذ سنين) تجسيد لجوهر الإنسان أو بالحقيقة هوية كل فنان يأخذ بصيحة شكسبير على لسان هاملت نفسه ((أكون أو لا اكون تلك هي القضية)) غير أن الصديق الوفي كما أطلق

مكتبة الفكر الجديد

عليه عبد الله، هذه التسمية التي تنطوي على قدر كبير من السخرية، تناسى وعده له وأسند دور هاملت إلى أحد أقرباء عميد الأكاديمية بدلاً من إسناده لعبد الله، الذي صار في ذلك الموسم المسرحي سخرية، تلاحقه نظرات العطف وشملته تلك الكلمة الشائعة في اللهجة العراقية: خطية. ولكن ماذا سيفعل هنا في أرض الصمت والخوف والنهار ثقيل الخطوات، يسير ببطء شديد، في أرض أطلق عليها اسم يليق بها، سبع البور، دون التوصل إلى معنى الاسم بالتمام، ماذا تعني سبع ولمن تعود، هل المقصود بها الأسد ملك الغابة؟ أم المقصود أن للبور سبع أبواب أو منطلقات؟. هنا في سبع البور يولد المرء ويموت وحيداً ودون ضجه بل يسير كل شئ، حسب مشيئة القدر، إلا تعرف هذا أيضاً؟ إلى أين كنت تنوي الذهاب، ومع من كان لديك موعد في باب المعظم؟ في كلية التربية، وهل نسيت مع من أردت اللقاء؟ أعاد الشريط في ذهنه ثانية، ودارت عشرات الصور في ذاكرته، أخذته الحيرة من شريط طويل مرّ به وقد استوقفته صورة واحدة بدت راسخة في إشاراتها وعلاماتها، هي صورته وقد تخيلها وهو يدخل بيتهم في حي البياع ومن ثم سيقرر كيف ينبغي أن تكون عليه حياته وإلى أين ستفضي به السبل؟ وما عليه إلا التفكير الراجح في كيفية الخلاص منهم، وليس سوى الليل غطاءاً مناسبا لهربه من كابوسهم الذي قض مضجعه، وجعل الحيرة تأكل قلبه دون رحمة، متى كان الليل غطاءً يستتر بعباءته من الآخرين؟ عادة في الليل يسهر وحيدا يغلق عليه باب غرفته ويبدأ بمناجاته ولا يجرؤ أحد من أفراد العائلة على طرق بابه أبداً، لأنه يكون في أصفى لحظات وحدته التي يتهيأ لها من بدء المساء، وبنفسه وبيديه يصنع مائدته الليلية، كان جاره في البيت المقابل له في الزقاق، يأتيه – بالبلانجو – كما يطلق جاره هاشم دقله على زجاجة الخمرة، كان هذا الجار هو صديقه الوفي له رغم أنه لم يكن متعلماً، لكن عبد الله يقول له: أنت أفضل من ألف مثقف جايف وكان دقله يرد ببرود ويقين: عيني عبد

مكتبة الفكر الجديد

الله ليس كل المثقفين جايفين بل بعضهم له رائحة طيبة مثل ذاك المثقف الذي عرفتني عليه عندما جاء لزيارتك في البيت، كم كان رجلا طيباً؟ وتساءل عبد الله عن ذلك الصديق الطيب فلم يتذكره لأن هاشم دقله لم يستطع أن يعينه على التذكر الصحيح، وكان الأخير يجد متعة خاصة في مجالسة عبد الله عندما يبلغه أنه بصدد أن يجلب البلانجو هذا المساء، عندئذ ينبري دقله في الذهاب إلى أقرب محلات بيع الخمور ليجلب للاستاذ عدداً من قناني البيره أو ما يتفق عليه من مسكرات الليل، الآن لا خمر ولا هم يحزنون بل هو بانتظار أن يأتي الليل. لينسل تحت جنح الظلام لا يمكن لهم أن يقنصوه، مهما احتاطوا للأمر من العمل على إعادته إلى حظيرتهم، في الليل تتكشف أسرار الدنيا وتذاع على الملأ آخر الأخبار، في الليل يهب اللصوص من مهاجعهم ليترصدوا ضحيتهم وهم ليسوا في عجالة من أمرهم لأن ظلام الليل يستر تحركهم، كان فعل اللصوصية يثيره، أي مغامرة هذه التي يرتكبها اللصوص، ماذا لو كان لصاً بين اللصوص، حتماً سيعرف طريقه إلى البيت ولن يعيقه شئ في اندفاعته نحو الخلاص من حصارهم، الذي يفكر في كسر طوقه بحيث لن يعود حصاراً وهو يعلم بخطتهم وقد فكر في تعامله مع الطريق، وقال مع نفسه، هم يعتقدون أنهم أسياد المكان وسوف يترصدونه في المنافذ والطرق السالكة، لن يندفع في هذه المسالك التي سيتوزعون فيها، بل سيأخذ أكثر الدروب وعورة وسيفكرون أنه ابن مدينة لن يستطيع المقاومة وسينهار لاحقاً ماذا أيقاوم الجوع؟ أم العطش؟ أم الانتظار الممل الذي يسلب الروح إرادتها ويتلف صبرها حتى يغدو الإنسان في ساعة من يأس مجرد حطام لا نفع منه، ترى هل سيتغلبون عليه؟ انتصف النهار واختفت كل الوجوه والعلامات، اختفت المرأة كما اختفى الرجال الثلاثة وتوارت سيارة الجمسي ومن فيها، وظهر عدد من الأولاد في المشهد الذي صار ثقيلاً عليه، شعر بحاجة إلى التبول، دارت عيناه في الأنحاء لينظر، أي الأرض

مكتبة الفكر الجديد

فيها منخفض (ترى من أين جاءت هذه الحاجة العجيبة) لكي يفرغ مثانته ويتخلص من كمية الإدرار التي ازداد ضغطها عليه كلّما أمعن التفكير بها، في تلك اللحظة اتضحت مهمة الأولاد، إنها البحث عنه في كل الأنحاء، شاهدهم ورأى العصي والهراوات بأيديهم استطاع أن يبصر الغضب والحيرة في وجوههم كانوا عدداً من الأولاد الصغار ومن هم أكبر منهم واضح أنهم تلقوا تعليمات صارمة و لم ير أي سلاح ناري بأيديهم أو يتمنطقون به، وبدأ الخوف يغزوه شيئاً فشيئاً وقد اتضح المشهد الذي يصرون على تنفيذه والحفاظ على إعطائه ميزة الإصرار والتنفيذ، هل وعدوهم بجائزة نقدية مقابل الإتيان به حياً أو ميتاً، يقيناً كانوا يفكرون إذا ما تيسر له الهرب من أيديهم سيجلب لهم رجال الشرطة وربما يستعين بأفراد من عشيرته، هم لا يعرفون عنه كل شئ بالتأكيد ومثلما تأخذه الظنون والأفكار السوداء عن حالته، لا شك هم كذلك، وفكر بجدية عن الذي تعلمه من دراسته الأكاديمية للدراما ألم يدرس العديد من الشخصيات دراسة نفسية، وكثير من تلك الشخصيات، كان بناؤها تركيبياً ومعقداً ولكنه خرج بانطباع جيد عن تلك الشخصيات وعن تحليلها، من جانبه أو من جانب الطلبة الذين لم يقصّروا في اجتهادهم، ويذكر تعدد وجهات النظر حول شخصية هاملت ولن ينسى تحليل الاستاذ لشخصية الطالب الروسي (راسكولنكوف) في رواية فيدور دستيوفسكي الجريمة والعقاب، التي ربطها بالحالة الاجتماعية والطبقية، وهذا خلاف ما ذهب إليه بعض نقاد الأدب الذين قالوا: إن انحرافاً عقلياً كان يعانيه راسكولنكوف، وقال البعض منهم أنه أحد المرضى المصابين بالعصاب.. يومها أشار الأستاذ على طلبته أن يوضّحوا كيف تبلورت شخصية البطل وتحددت ملامحها التي لمسناها في الفليم السينمائي أو في الرواية؟

أخفت هند عن زميلها رياض أن الخال عبد الله، يعمل فناناً مسرحياً

مكتبة الفكر الجديد

(يطلق عليه بالفنان الشامل هذه الأيام والحقيقة هي أن السيد عبد الله لا يدري إن كان ممثلاً تغيب عنه الأدوار المسرحية بفعل فاعل أم أنه ينبغي له أن يواصل تأليف الروايات المسرحية عساه يحظى بتقدير المعنيين بشؤون المسرح الحالي وينال حظوة لدى الآخرين، الذين يعنيهم العمل في المسرح) كما أخفت عنه الزواج المبكر للخال، بل أرادت أن تعطي له انطباعاً آخر وترسم له صورة غامضة ربما تدفع رياض لتنفيذ وعده وتحقيق عهده لها بالزواج منها، كما أنها لاتطلق على مشروع زواجها من رياض تسميات تقليدية مثل مؤسسة الزواج أو الرباط المقدس، هذه العناوين تسخر منها هند وتعتبرها عائقاً لتحقيق الأمل المنشود في تكوين أسرة جيدة ذات مواصفات حضارية ومدنية متطورة، وربما هذا الفهم ساعد رياض على الاستمرار في علاقته الغرامية معها وأوحت له أن الخال عبد الله أحد وسطاء التجارة بين الأردن والعراق وبين الأخير وبلاد الشام: (قبل أن تتكالب عليها صروف الدهر) وإن أوحت هند له بأن الخال وسيط معروف وأنه يمتاز بالكسل الموسمي، المعروف بين التجار شبه الصغار، وأن له نزوات مفاجئة للآخرين ولا يمكن التكهن بها، فالخال مثلاً يهوى فن التمثيل ويهوى الأغاني القديمة، ولما استمع زميلها رياض لكل هذه القصة تساءل: – والآن، هل الخال عبد الله هو فنان أم تاجر يهوى الفن؟ عندها ضحكت هند وقالت: يجوز لنا أن نعتبر الخال هو فنان بثياب تاجر والعكس صحيح وعليه سوف يسرك اللقاء به، و لم يعلق صديقها رياض على كلام هند التي يعتبرها مجرد فتاة بلهاء لا تدري كيف توجه حياتها وربما هذه هي أبرز نقاط ضعفها في حياتها اليومية سواء في الجامعة أو في ميادين الحياة الآخرى، وكانت هذه نظرته إليها واحدة لم تتغير خلال السنوات الدراسية في الجامعة، التي نمت وتطورت فيها علاقتهما بصورة لم يستطع رياض نكرانها أو التنصل منها، وكان عدد من الطلبة يجدون فيها مجرد علاقة هامشية وقد بنيت على مصلحة، وكانت هند تسخر

مكتبة الفكر الجديد

من تقولات وتخرصات من هذا النوع لأنها ترى في علاقتها برياض حتمية وتعتمد الإحساس القوي بالضرورة القصوى للحب الصافي الذي يمنح فيه المحب للحبيب كل ما يريد، وكانت هند هي المُحبة بينما رياض كان يقوم بدور الحبيب، غير أن شاباً مثل رياض لن تغويه أو تغريه فتاة من عائلة شبه معوزة كما يرى ويتلمس بنفسه يوماً بعد آخر، وهو يرى تلك الاستماتة من طرفها في تقليد، التقليعات الغربية وتلاحق الصرعات الحديثة بقدر ما تسمح به حالتها وإمكانياتها المحدودة، بنطلونات الجينز والملابس الرياضية الخشنة التي جلب بعض سماتها بل وألوانها الأمريكان خلال تواجدهم في البلد!! وهي بقامتها الموزعة بين الطول المثالي والقصر المحبب، كذلك شعرها الذي خضع لعمليات تغيير في تسريحته أو إخضاعه بقسوة إلى عملية القص والتقصير، كانت تتعمد في سيرها بأن تزيد من اهتزاز نهديها قليلاً ومثلهما تفعل بعجيزتها المكتنزة والمرتفعة نحو الأعلى بعض الشيء، لم يكن همّها إثارة الطلاب في الكلية بل دفع رياض إلى زيادة اهتمامه بها أكثر مما كان عليه من قبل، وهي بطبيعتها كانت كثيرة الشكوك ليس بحبيب العمر وحده بل بالآخرين والبنات هنّ محط غضبها دائماً، و لم تكفّ يوماً عن الهجوم على كل بنت يمتدحها رياض بمناسبة أو بدونها، وكلّما تقاعس عن تزويدها بشحنات الغزل والغرام ذكرته وعلى سبيل المزحة بأجمل لحظات حبهما، وكانت تقول له وهي لا تكف تضحك معه: هل تتذكر عندما قبلتني أول مرة ماذا قلت لك وأنت بماذا أجبتني؟ ورغم أنه يفضل الصمت على ما أسماه في أكثر من مناسبه بالكلام الفائض عن الحاجة، لكنها تصرّ على رواية ما قالته له وما قاله لها عندئذ يضطر رياض للخضوع القسري، لتلك المحاورة التي تتذكرها هند، يقول لها هيا أسمعيني ما تريدين، تقول: حين قبلتني من فمي لأول مرة صرخت بك: عيب! لكنك قلت لي: يا لطعمها الشهي!! أتذكر؟ يقول لها: كيف لا أذكر ذلك الصباح.

مكتبة الفكر الجديد

عندما تدرّجا في دراستهما حتى المرحلة الثالثة من الجامعة فرض عليها رياض مقترحات هي أشبه بالالتزامات، ولأنه لا توجد سينمات أو مسارح أو أماكن للهو البريء، فكانا يذهبان إلى أحد الفنادق الراقية كالمرديان أو الشيراتون في ساحة الفردوس، ويجدان في تلك الفنادق ملاذاً آمناً لهما بل باستطاعتهما أن يستمتعا بوقتهما في هذه الأماكن الراقية دون اعتراض من أحد، وكانا يجدان متعة خاصة في تنقلهما بين أجنحة الفندق الواحد، بين المطعم والمسبح والكوفي شوب أو الصعود إلى الطابق الخامس أو أعلى طابق، هناك يستطيع رياض أن يقتنص من محبوبته قبلة سريعة أو اضمامة خاطفة، وفي أحد الأيام اقترح عليها تلبية دعوة لزيارة إحدى معارفه الشخصية، هي: سيدة فاضلة تعيش في منطقة شبه نائية، وحين ذهبا معاً إلى بيت تلك السيدة لم تستقبلهما أول الأمر بل دخلت عليهما فتاة شابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين، اتسم دخولها عليهما بالصمت الحذر وقد قدمت لهما الفتاة صحناً من الفواكه الممتازة ثم وضعت الصالة تحت تصرفهما، بعدها، دخلت عليهما السيدة الفاضلة التي ادعت أنها خارجة لقضاء أمور تخصّها وقالت لهما بجدية أنها تود أن يتصرفا كأصحاب المنزل وحرام عليهما أن يترددا في طلب أي شيء هما بحاجة له، فما عليهما إلا أن يناديا على البنت التي يمكن أن يناديا عليها بفاطمة وسوف تلبّي طلبهما، وشاهدت هند عدداً من الرجال دخلوا إلى بيت السيده الفاضلة، تباعاً ثم انصرفوا الواحد بعد الآخر وقد ألقوا بحزمة من الحطب، وكانت هند قد شاهدت أحدهما يهبط من سيارة نوع جمسي وهو الوحيد الذي كان يعتمر يشماغاً وعقالاً، وبعد مضي هؤلاء خارج البيت ساد صمت وهدوء ثقيلان أخافا هند بادئ الأمر لكنها لمحت البنت التي اسمها فاطمه، تخطر من أمامها بحركة تكاد تكون مقصودة، ذلك أنها استدارت بزاوية حادة، بحيث التقت نظرتاهما معاً ولا أحد يعلم لماذا فكرت هند بتلك البنت التي وجدت

مكتبة الفكر الجديد

أنها تعاني أمراً غامضاً بسبب تلك النظرة الجانبية التي صدرت منها لكن هند لا تدري ماذا هي فاعلة في ساعة خوف وتوجس من كل شيء متوقع أو غير متوقع مع أن رياضاً كرّر لها القسم أنه في شوق إليها فقط، حدث هذا في السنة الثالثة من دراستهما الجامعية وهي السنة الثانية في علاقتهما الخاصة كما يحلو لهما تسميتها التي تحجج بها رياض على اعتبار أنهما في عمر يؤهلهما التصرف المعقول في حياتهما، وبدا الشحوب ظاهراً على وجه هند من التوجس والقلق من اللحظات القادمة التي لا تعرف ماذا يخبئ لها القدر، والغريب أنه أخرج زجاجة ويسكي صغيرة من حقيبته (التي تحوي على بعض الكراريس والملازم المدرسية التي تدخل في مناهج الجامعة)، أخرجها ووضعها على المنضدة الخشبية التي أمامهما، وقال مبتسماً: ليسمح لي حبي أن أتناول قدحاً واحداً فقط من الويسكي الاسكتلندي، في هذه اللحظة أدركت ارتكابها الخطأ الذي لا توجد فرصة لتداركه، ومع نفسها قررت الدفاع عن الشرف الرفيع من الأذى، مهما سيكلّفها أمر حمايتها لكنه طمأنها إلى أنه ليس من أولئك الأولاد الرعاع الذين لا رادع لهم، وابتسمت هند بمرارة لكلمة رعاع التي تلفظها رياض بثقة تامة، عندئذ أخذ جرعة كبيرة من قدحه الأول الذي ملأه إلى الحافه تقريبا بالويسكي الذي فاحت رائحته في أرجاء الصالة، وشعر بالهنائة في جلسته معها حول مائدة ساهمت هند في ترتيب مستلزماتها الضرورية، وانتظرت أن يقول رياض أية كلمة تدخل البهجة إلى قلبها وأمل يزرعه تجرّع الكأس الأول، الذي ينتشر في الأعطاف وهي تعرف من خلال الخال عبد الله، الذي كانت تجده يتناول الخمور المحلية مع صديق له هو الجار القريب من دار الخال الذي يناديه بهاشم دقله، وكان يقول لها: من فضائل الخمرة أنها تجعل شاربها نشواناً مما يدفعه إلى أن يكون عاطفياً بل وسخياً يحاول إدخال البهجة إلى قلوب من هم قريبون منه أو أحبته أو من يعشقه وعندما تورّد وجه رياض بعد

مكتبة الفكر الجديد

القدح الأول، حاول أن يكون قريباً منها وذلك حين امتدت ذراعه إليها لتمسك بها وتسحبها قليلاً، لم تمانع هند التي ظلّت نظراتها حائرة إلى أين تتجه، غير أنه أمسك بها بقوة مما دفعها إلى أن تسأله: لماذا تتصرف هكذا؟ ثم لماذا أصبح لصقها: دع ذراعي أولاً وأخبرني ماذا تريد بالضبط، والغريب أن رغبته بها ازدادت أكثر لما شمّ رائحة طيبة تصدر من حبيبته تلك الرائحة غالبا ما تشممها من قبل في الفنادق المحترمة ذات الدرجة الأولى، مما دفعه ذلك إلى تطويقها بخفة بحيث ارمى عليها، وإذا أردنا الدقة بالوصف الذي ينشده بعض القراء الذين يهمهم إلى أين استطاع بطل القصة أو الرواية الوصول مع البطلة بعد تورط الأخيرة مع حبيبها أو صديقها، إذا أنشدنا التعبير الكامل للقائهما سوف نقول، أن رياضاً تهالك على جسد هند دون تردد، لكنه التهالك الذي يفضي إلى خراب، ولمّا أرادت التخلص من قبضته، انتفضت في الحال تريد الوقوف غير أنه شدّد من قبضته على معصمها وجرها إليه، بحركة جعلتها تئن أول الأمر، ولما نهرته بكلمة: دعني وشأني، لم يترك اليد الممتدة مع قامتها الممشوقة المتجلية بجمالها اللدن، وقال بحزم: إذا لم تشاركيني جلستي سأعتبر هذا يوم قطيعة بيننا وسألته ماذا يعني: يوم القطيعه بالنسبة لك؟ قال: أعني أننا لا نعود أحباباً ولا حتى أصدقاء. ويبدو أن كلماته هذه دغدغت جانباً من مشاعرها الراكدة، تبادلا النظرات الحرى ثم ما لبثت أن مالت عليه بحيث التصقت جبهتها بفمه، وجدها ساخنة لمّا احتواها بذراعه الآخر وأصبحت لصقه مماما وشمت من فمه رائحة الخمرة (الاسكتلنديه) داخلها نوع من الخدر المفاجئ، وقالت: لا، لا أرجوك رياض! لكنّه وجد نفسه يسبح في عالم من الرغبة القاهرة التي طوّقته بحبائلها ودعته إلى أن يتشمم رائحة الجسد وما يعتمر بداخله من طاقة جنسية، اندفع يغوص في أعماق ذلك الكنز، وحانت منه التفاتة طارئة على ذلك الوجود الذي جعل الاثنين يغوصان في لجة من اشتهاء ورغبة عارمة،

مكتبة الفكر الجديد

أفاقا لبعض الوقت، غير أن الصحوة المفترضة جعلتها بحالة من الرضا المفاجئ عن النفس، وضعت يده بين كفيها وربما هو الذي فعل ذلك بها ودفع يديه (كلتيهما) لاحتواء يديها الناعمتين، تبادلا النظرات ثانية، تركته يمتص الرحيق الريان وكررت نداءها بصوت متهالك ممتلئ بالرغبة العارمة: لا. لا رياض أرجوك.. أصبح رياض سيداً على الجسد الممنوح له، وتساءلت بصوت قهرته الرغبة بالاستسلام: وما نهاية هذه الجولة رياض؟ لم يكن ثمة جواب فقد انغرز انفه وفمه بكنوز جسدها الذي تبين ضعفه الشديد إزاء الغزو المتوغل في مماديه وتحقيق سلواه.. الجسد يعلن استسلامه دفعة واحدة كأن الخرس أصابه، لتأدية صلاة لا خلاص من القيام بها بل تنفيذها حسب متطلبات الديمومة التي وعد بها رياض قبل بدء الجولة، لافتتاح طريق الخلاص، كانت الاندفاعة أقوى منه ومنها أيضاً، أدرك بين اليقظة التامة والحلم المفاجئ، لكنه لم يعط على نفسه وعداً ولا عهداً قط و لم يعبد الطريق لها بالزهور وامتدت اليد تتلمس السهول والهضاب مرة أخرى ولكنه واجه سيلا من الدم، تلطخت به يداه أول الأمر، وأصبح من الصعب عليها معرفة ما حدث لها في تلك اللحظات، ويبدو أن أبرز مراحل عمرها كانت خاليه من غزوات الرجال أو أن ما عاشته هند كان مجرد أطياف عابرة، لا يمكن الاعتماد عليها على أساس التجربة الشخصية لها بل أوحت له، أن صاحبته لا تعرف من العلاقات الحبية (كما يحلو له أن يطلق على الممارسات الجنسية) ما يؤهلها أن تصبح مجرد عشيقة له وأن ما تعرفه عن حياة الجسد ليس أكثر مما تعلمته من الأفلام العربية وربما الهندية أيضاً، وهو يتذكر كيف انهارت أمام ضغطه المستمر عليها حين أوحى لها في الدقائق الأولى كيف ستخسره إلى الأبد إذا هي أصرت على عنادها في إلا تستسلم له، عندئذ، بادرت هي لإعلان موافقتها على مقترحه، أن يلتحم الجسدان معاً وينصهرا طواعية، وفي الحقيقة، لم يكن يتوقع أن تسير الأمور معها

مكتبة الفكر الجديد

بهذه السرعة، التي جعلته يشك في أنها ما زالت لم تدخل غمار التجربة من قبل ونظر إليها والحيرة تأكله، كانت بقع متناثرة من الدم قد انتشرت حولها وهي تنظر مصعوقة للذي جرى ويجري أمام عينيها غير عارفة ما الذي ينبغي لها القيام به؟ وهو أيضاً استمر يحدق بها مبهوراً ماذا عساها أن تفعل وماذا عليه أن يتخذ من قرار لكن ما أتعبه حقا هو صمتها المستمر في حيرة طاغية على الموجودات في الغرفة التي تركت تحت تصرفه، والذي فعلته هند أنها نهضت من ممددها على الفراش الملقى على الأرض بقصد واضح، وارتقت أحد المقاعد الخشبية في الغرفة المستطيلة وبدأت تسلم قيادها إلى عشرات الظنون والأفكار الجنونية، وشاهدها منذهلاً كيف التوت والتمت على نفسها بضيق ظاهر، وكيف سالت الدموع الغزيرة بصمت ودون إجهاشة بل استمرت الدموع تنسكب على الخدين الأسيلين، بصمت قاهر، نهض رياض من مكانه وطوّقها بذراعه برفق بادئ الأمر ثم ضغط على ذراعها اللدن بقوة ومال عليها واندهشت لما أدركت انقطاع الدم وإن كانت الآلام تشتد بين فخذيها، وساقيها، وظنّ أنه سمعها تلفظت عبارة: حطمتني..

كان ازدياد الألم يثير الرعب في داخلها وصدرت منها صيحة مفاجئه:

– يا الهي ماذا صنعت بنفسي.؟

حالاً اندفع إلى داخل البيت وغاب لبعض الوقت ثم جاء وأم فيصل تسبقه إلى حيث تجلس هند جاءت صاحبة الدار التي أطلق عليها رياض بالسيدة الفاضلة أتت تصيح من الداخل: ماذا تفعلون ببنات الناس؟ إلا تخافون الله؟ ثم لما وصلت إلى حيث تتخذ هند جلستها الحزينه، خضتها بعنف ظاهر:

– لماذا لم تخبريه أنك مازلت بنتاً؟

لم تجب هند بشئ قط بل استمرت الدموع المدرارة بالنزول على

مكتبة الفكر الجديد

الخدين، بصمت أغضب أم فيصل في الحال:

– اسمعي لا تمثلي علينا دور البنت المقهورة من أرغمك على المجئ مع ابن الحرام هذا إلا تعرفينه من قبل؟

استمرت في بكاء صامت حزين و لم تكن تعرف حقيقة ما تقوله أم فيصل أهي سيده فاضله أم مجرد – قواده – تستأجر جانباً أو جناحاً من بيتها لمن يبحث عن ملجأ أو مأوى مؤقت من أمثال رياض، ومن هم على شاكلته وقد سمعت الكثير من الكلام المسيء عن نساء أقنعن أزواجهن بالسماح لهن باستئجار جناح أو ركن من البيت يمارس به بعض العشاق الحب فيما بينهم ولساعات محدودة، وكلما ازداد عدد الساعات تضاعف ثمن استئجار الغرفة أو الصالة التي يمكن الاستغناء عنها، لكن هند لم يحدث أن التقت بهذا النوع من النساء، ولعل أم فيصل واحدة منهن غير أنها تذكرت، ما قاله لها رياض من أن له معارف من الرجال والنساء يمكن أن يستقبلوه وهي معه لتمضية بعض الوقت هناك، ومن بين هؤلاء يعرف امرأة محترمة وهي سيده فاضلة يمكن تمضية بعض الوقت عندها، وسألته ما الذي سنفعله في منزل السيدة الفاضلة، قال أنه بحاجة إلى أن يعرفها أكثر وعن قرب أيضاً، وقد وافقت مرغمة على مرافقته إلى منزل أم فيصل، غير أن هند تعترف أنها لم تجد في صاحبة البيت ما يمكن أن يطمئن لها من يلتقيها لأول وهلة، رغم الحفاوة التي استقبلت بها صاحبة المنزل هند ورياض، استقبالاً يليق بالعرسان أو الشبان العائدين من غياب طويل، وربما هذا ما جعل هند في حيرة من أمرها وبلبل الكثير من أفكارها حول الناس والأشخاص الذين تتعرف عليهم لأول مرة.. ولما صرخت أم فيصل بها انتبهت إلى أنها أمام امرأة لها سطوة رجل يستطيع أن يحسم الأمور لصالحه برمشة عين، وفكرت أن تقابل القوة بما يتلائم معها من حيث ردة الفعل الذي طوح بشرفها بصورة لم تحتملها هند، ولما وجدت

مكتبة الفكر الجديد

أن أم فيصل تستخدم هذا الأسلوب معها بقصدية (وربما تستخدمه مع بقية البنات الأخريات اللواتي يتورطن كما تورطت هي الآن) تقصدت هند أن تتحدى السيدة الفاضلة، وحين كررت أم فيصل عبارتها: - إلا تعرفينه من قبل؟ ردت عليها هند بصوت متشنج يخلو من الضعف أو اهتزاز الرأي:

- نعم أعرفه ولكن لا أعرفك أنت! و لم أفكر في أي يوم مضى الدخول في هذا البيت. حتى البنت التي اسمها فاطمه تبدو ليست من هنا؟!

عندئذ انتبهت السيدة أم فيصل إلى أنها أمام فتاة، لا يمكن الوقوف بوجهها بالبساطة التي تتصورها، وقررت عدم الاستسلام فقد يأتي من وراء فتاة كهذه، سلسلة من المشكلات التي لن تتمكن أم فيصل التخلص منها إذا ما جاءت متلاحقة وهي أدرى بالمصائب، عندها قالت متسائلة بهدوء:

- أنت فتاة عاقلة وحين جئت إلى هنا أعتقد كان عقلك في رأسك. أليس كذلك يا عزيزتي؟ والآن ماذا تريدين أو ماذا قررت؟

نظرت المرأتان لبعضيهما نظرة من يفهم جيداً ماذا تريد الواحدة من الآخرى، : أنا لا أريد إلا الحفاظ على كرامتي واسترداد ما ضاع مني ولا أكون فتاة منبوذه من قبل الآخرين.

- ما دمت تتحدثين عن الكرامة والبنت المنبوذة، فالأمر لا يعنيني يا عزيزتي، أعتقد المسألة أصبحت من اختصاص رياض.

حين ارتفعت حدة الصوت ظهر في الأفق زوج السيدة الفاضلة، بشاربيه الكثيفين وقامته المديدة ووجهه الطاعن بسمرة حالكة، حين فتح فمه ليتكلم كشف عن أسنان بيض، كان صوتاً أجش ذاك الذي صدر عن أبي فيصل:

مكتبة الفكر الجديد

-هذا بيت عائلة محترمة.

- اخرج أبا فيصل الأمر لا يعنيك هذا كلام نسوان.

التفتت إلى هند، التي وجدتها في حالة ذهول، غير أن أم فيصل تصرفت بحكمة وجلبت بعض الثياب وتركت هند تتخلص من ثيابها الملوثه ببقع الدم، وباشرت بتنظيف منطقة الحوض والساقين ومحيط الفخذين، ولما تأكد لهند أن أم فيصل يمكن أن تكون امرأه طيبة ولكن مغلوب على أمرها بسبب الظروف المحيطه بها، سخرت من نفسها حين وجدت أن من المضحك أن تبرر أخطاء أم فيصل (السيدة الفاضلة!!)، ولكن هل أصيب رياض بالخرس؟ لماذا لا يتكلم ولا يفتح فمه بشيء، هل أعد لها كميناً محكماً؟ كان وجهها الشاحب شحوب أشعة الشمس لا يترك لها مجالاً للكلام، كانت عيناها تنظران ببلاهة واحتباس صوتها يشبه حالة الصمت التي لازمت رياض الذي لم يفتح فمه بحرف قط، وزادت أم فيصل من اهتمامها بهند في حالة عصبية كهذه، وأشارت على رياض أن يكون إلى جانب هند كما لو كانت ابنتها التي ينبغي رعايتها والوقوف إلى جانبها في السراء والضراء معاً.. وتقدم رياض نحو الداخل ليمسك هند من ذراعها وينهضها، لتقف أمامه مطبقة الشفتين وجسدها الذي بدأ يرتعش، يختض من المجهول الذي لا تعرف منه أي الصفحات القاتلة ستقف أمامها عاجزة عن معالجتها أو تدارك أخطائها، تلك اللحظة تساءلت مع نفسها: لمن ينبغي اللجوء؟ إلى رياض الذي قد لا يفي بوعده وانتبهت إلى أنه لم يوعدها بشئ واضح أبداً وعاودتها حالة من الخوف من تداعيات حالتها كفتاة وطالبة جامعية لم تستطع أن تحافظ على أبسط مقومات الأنوثة، وخطر أمامها وجه الخال عبد الله نعم هذا يمكنه الوقوف إلى جانبها في محنتها غير المتوقعة، ينبغي لها أن تخبره حالما تجد الفرصة مواتية، أي فرصة يا بلها، يجب أن تخلقيها بنفسك وأن تفاتحيه في الحال بل أن تضعيه وسط

مكتبة الفكر الجديد

المشهد أو داخل الصورة كما يقال عن حالات من هذا النوع، وعليه أن يتصرف بحكمته التي تعرفينها وبصبره الطويل الذي يصل في بعض الأحيان إلى التردد إن لم يكن الجبن، ولكن لن يخطأ بحقها شخص تحبه مثل رياض أبدا ومن قال لك أنه لا يجعل منك أضحوكة بين الطلبة؟ وسوف ينفجر بالضحك بين عدد من أصدقائه المجانين الذين يتفاخرون بنزواتهم وحماقاتهم فيما بينهم، ويتبارون بعدد البنات اللواتي أسقطوهن في حبائلهم وصنعوا لهن المكائد بمهارة فائقة ومقدرة عجيبة على الكذب والتلفيق والإغراء وتزيين المستقبل لضحاياهم حتى يزداد عدد الأرقام من البنات اللواتي أسلمن أمورهن للقدر، وهي أليست رقماً بين الأرقام؟ التي يعددونها رقماً إثر آخر وكل رقم يشير إلى بلهاء غرروا بها في ساعة كانت الغشاوة فيها كثيفة على عينيها، وهي ألم تكن الغشاوة سميكة أيضاً، و لم تر ما سيجري لها في تلك الدقائق التي تعد على عدد الأصابع كل هذا بسبب الغشاوة اللعينة، وبجدية وحرقة تساءلت إن كان القدر سيتخلى عنها ويفشل الخال عبد الله في إرغام رياض على الزواج منها أم تراه سيتخاذل أمام أول تهديد يصدر من رياض أو أهله وأقاربه الذين يتحدث عنهم باعتزاز دائماً، ولا تدري كيف قفزت صور عدة من وجوه تعرفها كما تعرف صرامتها، و لم تفكر بأخوتها الذين يصغرونها بسنوات أما الوالد فهي تعتقد أنه يئن في مثواه كلّما (ودع الحياة إثر تفجير مقهى في حي العامرية فقد كان على موعد مع صديق لم يتعرّف عليه أحد من أفراد العائلة حتى هذا اليوم، الذي فقدت فيه هند عذريتها وقد فعلها رياض معها غير نادم، وهي تتذكر صورة والدها قبل أن يغادرهم إلى الرفيق الأعلى فقد كان نموذجاً للمسالمة والصبر على الملمّات وكان يكبر الخال عبد الله بسنوات عدة، ومع هذا كان الوالد الحصيف يعتبر الخال أخاه الذي تكرم الحظ بإعطائه له، لكن هذا الخال الذي يعشق كل ما يتصل بالمسرح من فعالية مباشرة وغير مباشرة لا يجيد الدفاع عن حقوقه، فكيف

مكتبة الفكر الجديد

تريد منه هند أن يدافع عنها؟ المسرح والكتابة هما كل ما يملكه الخال (عبد الله) تعرضت هند إلى حادث جلل له قدرة اختراق تراب القبر، وأول الوجوه التي استعرضتها مخيلتها كان وجه حامد النجار العسكري المتقاعد منذ سنوات، فهو معروف في المنطقة التي تسكن فيها هند، وتذكرت الأحاديث التي أحاطت بوالد حامد النجار وأجداده الذين قاتلوا الإنكليز والحكومات السابقة، لأنهم كانوا يرفضون الظلم والحيف الذي سببته الحكومات عبر تاريخ البلد، ومثلما تذكرت حامد النجار تذكرت أيضاً وجه مزهر القصاب، الذي امتاز بالحكمة والصرامة في الوقت نفسه وقد أذيع صيته في المنطقة على أنه يرفض أي شكل من أشكال الخديعة، والمكر أو النصب والاحتيال، وتصورت ما الذي سيحدث بعدما تخبرهما (حامد النجار أو مزهر القصاب) ويقيناً سينتصر لها أحدهما إذا ما وضعته في الصورة كاملة، وكيف خدعها رياض بعد أن أتى بها إلى هنا، وسيقول لها حامد النجار أو مزهر القصاب: – هنا أين هذه الهنا؟ وستدله على بيت أم فيصل وستحدث المأساة حتماً ولا مفرّ من المواجهة والتحدي بينهما وفكرت أن أم فيصل لا تقل شراسة عن أي رجل عنيد، يريد أخذ خصمه بالحكمة أو القوة إذا عجزت الحكمة مع ذلك الخصم، ولكن أليس رياض هو الحبيب الذي وهبت نفسها له طواعية، فكيف تجيز لعقلها التفكير بمن يستطيع الانتقام منه وتصفية الحساب، وأي حساب تعني؟ أمها التي تكدح ليل نهار في التدريس، كيف لها أن تستقبل الخبر الفاجع؟ وهي التي ظلت تكافح بعد موت الأب من أجل هند وأخوتها، تدخر النقود مضطرة، لكي تتخلص من أي عائق يعطل سيطرتها على حياة أسرتها، وكان شقيقها الفنان السيد عبد الله يزورها بين الحين والآخر قاطعاً المسافة بين سكنه في حي البياع وبين حي التراث حيث تسكن شقيقته هناك يقطعها راكباً إحدى السيارات المعروفة بالكيا، يمضي في ضيافتها ساعات محدودة، وأحياناً تطول جلسته عند الأخت أم هند، لما

مكتبة الفكر الجديد

بعد فترة العشاء وكانت هند وبقية أفراد العائلة، يجدون في زيارة الخال فرصة مناسبة للحديث عن الفن الذي لا يعرفون عنه إلا بضع مفردات أو عدداً من الأسماء المشهورة مثل يوسف العاني وحقي الشبلي وناهده الرماح من الرعيل الأول أما الأسماء الأخرى من الأجيال الجديدة، فقد كانوا يجدون الفرصة مناسبة عندما يزورهم الخال عبد الله، ليحدثهم عن زملائه الفنانين الجدد، ومن أجيال مختلفه (يحدثهم عن المسرح الحديث وعن النهايه المأساوية لمسرح الرشيد، وكيف يموت العديد من زملائه جوعاً وحرماناً وبعضهم اضطر إلى طلب اللجوء لإحدى الدول الأجنبية التي لم يفكر في الوصول إليها، وذات مرة سألهم الخال عبد الله: ما هو البلد الذي يغفو على بحر من البترول وشعبه ينام جائعاً أو ما هو البلد الذي يمتلك أكثر من ثلاثين مليون نخلة وشعبه لم يشبع من التمور أو لنصحح المعادلة فنسأل من هو الشعب الذي لديه أكثر من أربعمائة نوع من التمور ولا يعرف سوى أربعة انواع منها؟ هذا الخال هو الذي فكرت هند بالاستعانة به، في أزمتها مع رياض الذي كان قبل يوم وليلة هو حبيب القلب ولا يوجد من ينازعه على هذا القلب أحد سواه، هذا القلب المسكين، الذي عطل الكثير من الآمال المعقودة عليه، لقد خيّبها في لحظة ضعف غير متوقعة، عندما لامست يده ذراعها، في حالة من حالات الحنو البشري التي يعلن فيها العاشق استسلامه للمحبوب، وشعرت تلك الأثناء أنها لابد من القبول بهذه الحالة التي وجدت ألا مناص من التناغم مع ما يصبو إليه الحبيب، وإذ تعقد عليه الآمال في الخلاص من وحدتها القاتلة، في البيت مع ولد في الرابعة عشرة من عمره وأكبر من البنتين بالتتابع إذ الولد أكبر من البنت الأولى بأربع سنوات أما الصغرى فقد بلغت قبل موت والدها السابعة من العمر، أما الأم فإنها تعيش مع هذه الأسرة حياة لا تطاق في حي شعبي متداعي البيوت يدعى حي التراث، وما أدراك ما هذا الحي بين بقية الأحياء الشعبية الأخرى؟ إنه حي المنسيين والمتروكين،

مكتبة الفكر الجديد

للأمطار والعواصف، والشوارع غير المبلطة والمفخخات والعبوات اللاصقة والاغتيالات الكيدية، في هذا الحي الذي هو نهب للفقر والجوع والمرض، تعيش هند مع أفراد عائلتها، والأم تعيلهم وتصرّعلى أن تمنح فرصة التعليم لجميع أولادها، وهي المعلمة الحريصة على تأدية واجبها المتمثل، في أن تكون الأم المثالية بين نساء الحي، ولا أحد يعرف من أين أتت بهذه الفكرة؟ فقد أعلنت أنها لن تتزوج من أي رجل بعد مقتل زوجها في حادث تفجير أحد المقاهي، فقد كان الرجل على موعد مع أحد أصحابه وحدث التفجير الذي أودى بحياته وقد وجدت جثته ممزقة عند رصيف الشارع، وهذا يعني أن موعده لم يكن في المقهى، بل خارجه وقد تم التعرف عليه من خلال هويته التي كان يحتفظ بها في جيب بنطلونه الخلفي ومن الطريف والمؤلم على حد قول السيد عبد الله: أن القدر تعاطف مع العائلة لأنهم عثروا على جثة والدهم و تمكنوا من دفنه لكي يكون له قبر يمكنهم زيارته في حال طوّقهم الحنين إليه، وحين استلمت الأم جثة زوجها أقسمت على أنها لن تسمح لرجل مهما كانت صفته أن يلمسها وأنها حرّمت نفسها على أي رجل بعد الذي حصل لزوجها من حادث شنيع، والحق كانت ما تزال تحتفظ بجانب كبير من أنوثتها الواضحة السمات ذات الطابع الجنسي، غير أنها عانت طويلاً بسبب تلك الطاقة الجنسية التي تحتفظ بها أم هند والتي تكبر شقيقها الخال عبد الله ببضع سنوات وهو الذي لم يتعد الأربعين من عمره، وقد عرف عنها حبها وعطفها عليه لأنها تعتقد أنه بسبب زواجه المبكر الفاشل لن يفوز مستقبلاً بفتاة ترعاه، وهذا ما جعل الكآبه تلازمها خلال ساعات النهار، ولاحقتها أقاويل شتى بسبب حالات الصمت والحزن المرتسمة على صفحة الوجه الذي بدأت بعض ملامحه تذوي وتذبل، رغم ما عرفت به أم هند من قوة وصلابة، كامرأة عنيدة ولديها طاقة كافية للمقاومة ضد صروف الدهر والحق كانت تمارس الكثير من أمور حياتها أشبه بالسائر في

مكتبة الفكر الجديد

نومه، ولا أحد يعرف كيف ستستقبل محنة هند وخيبتها من حبيبها رياض الذي وضع على وجهه قناع البلهاء الصامتين أبداً لا يحر جواباً، أو من تسيدت الحيرة على حياته، رغم أنه حاول أن يبث روح الصبر في نفس هند لئلا تنهار أمامه أو أمام طلبة الكلية الذين تهمهم أخبار الزملاء ممن يطيح القدر بحياتهم أو مستقبلهم، ورياض ليس على استعداد لتحمل أي نتائج قد تأتي بها تصرفات أو سلوك مفاجئ تقوم به هند، لكنه بذل جهوداً مضنية في سبيل إقناعها على تأجيل فكرة الزواج منه في الوقت الحاضر، ولما سألته: متى إذن؟ قال لها أنا شاب مؤمن بربي ولا يمكن التكهن بالمستقبل، وقال بنبرة صارمة: لندع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي أولاً ومن ثم سنجد الكثير من الحلول المعقولة.. عندئذ أدركت هند أن حياتها سائرة إلى خراب مع هذا الولد المراوغ الذي ينبغي ألا تأمن جانبه، كيف إذن أسلمت مصيرها إلى شاب مثله؟ ماذا ستقول لمن يسألها عن رياض إذا تركها تواجه مصيرها وحدها ودون عون منه أو من أحد آخر؟ يا لتعاستها التي لا تطيقها هند المسكينة التي كانت تأمل منه أن يحيطها بالحب ويفجر مكامن السعادة في حياتها لماذا يحصل هذا معها دون غيرها، دون البنات الأخريات؟ يا لقلبك القاسي أيها الحبيب الغادر فقد خيبت آمال الفتاة التي منحتك أغلى ما لديها، هل باستطاعتك أن تقلب الأمور رأساً على عقب وتتصور أن ما واجهته هند من مصير سيء حدث مع إحدى البنات اللواتي هن من معارفك أو قريباتك ولنقل إحدى شقيقاتك؟ ماذا أنت فاعل يا بطل؟

ألاتدري كم مضى عليك وأنت ترعى الحقول الشاسعة، في مراعي الآخرين، أتذكر الأحلام التي راودتك وأنت ساه عن الذي يجري من حولك، هل تتذكر أجمل الأحلام، قد يسخر منك الآخرون إذا رويتها لهم، أحلام لا تراود إلا المجانين من أمثالك؟ هل تبغي الزواج من ابنة السلطان؟ أم تريد أن تبني بيتاً هو للقصور وللقلاع أقرب؟ أم أنك أمضيت

مكتبة الفكر الجديد

السنوات الأخيرة تحلم كما يحلم الرعيل الذي هو على شاكلتك؟ أن تمثل أدواراً لشخصيات لم ينزل الله بها من سلطان؟ كيف يحق لك أن تفكر وعلى مدى سنين أن يُسند لك دور من الأدوار التراجيدية الكبيرة، هاملت أو عطيل أم يليق بك أن تاخذ أدواراً من مأساة العصور المتأخرة؟ ماذا ترى بدور كازنوفا أو دون جوان! أو أحدب نوتردام؟ كلّها أدوار ظلّ المئات من الممثلين البارعين يحلمون بها دون جدوى، فلم يفلح منهم إلا النفر القليل من فاز بالكأس المعلى وحظي بحب المخرجين الكبار فأسندوا لهم الأدوار التراجيدية الخالدة وسميت بأسمائهم، وأنت لك الحق في أن تحلم بأحد تلك الأدوار، ولماذا لا تحلم بها يا سيد عبد الله وأنت المعني بالفن أكثر من سواك؟ وقد أخلصت له بكل ما تملك من جهد وصبر على الملمات، ولم تحقق ما تصبو إليه روحك الظمأى لأن ترتوي من فيض عطايا الفن الذي قلت عنه ذات يوم وفي محفل من رفاق المهنه، أنه أي الفن هو نعمة وعافية للذي يجيد صيانته ويحفظ له هيبته، وقال لك أبو العز: أنت يا أخي تتعامل مع الفن تعاملك مع كائن حي؟!

اه، يكون على خطأ من يتعامل مع الفن بصورة متعالية وينظر إليه على أنه ظاهرة فنية فقط!

وضج الحضور بالضحك على ما تلقي عليهم من مفردات غريبة أو مصطلحات بعضها غامض غموض الليل كما ردد عليك أبو العز في إحدى المرات التي كان البلانجو (أبو العز هو الذي أطلق على جلسات السمر الليلية بجلسات البلانجو ولا أحد يعرف من أين استقى تلك التسميه وجاء بها) حاضراً في تلك الجلسة التي طاب لك السمر فيها بينهم، وتوردت وجنتاك واختلفت فيها النبرة، وتمنيت المكاشفة فيها معه وإن لم يكن له يد تصل الغايه المرتجاة، لكنه يستطيع أن يقدم لك خدمة صريحة وقد تصيب وقد تخيب، لكنه سوف يثبت أحقيته بالصداقة المخلصة التي تنشدها

مكتبة الفكر الجديد

لدى الآخرين، لماذا لا تسأله طلبك الميمون: أن تحظى بدور يليق بموهبتك، دور سوف يشهد له الآخرون، على الغبن الذي لحق بك من قبل السادة المخرجين، لكنك ترددت طويلاً في أن تبوح له بمكنون قلبك وما يعتمر في نفسك من هموم وإحباط، من قبل الآخرين؟ وأين هو الميدان الحقيقي لها؟ أين المرعى وأين الراعي وأين الشاة؟ لكي تفوز بالثمرة الناضجة، وحين يسند إليك أحد الأدوار القصيرة فماذا تقول؟:

– أعرف أن هذا ليس الدور الذي يكشف عن موهبتي، فقد خلق فنان مثلي للأدوار الكبيرة، وسوف أقوم بها عاجلاً أم آجلاً، لا مفر من كتابة مسرحية تراجيدية تتميز بها كاتباً أولاً.. أبداً لا أريد أن يعرفني الجمهور مؤلف مسرحيات قد ترفضها إدارة المسرح، ولا تدعني أفكر في العودة إلى التأليف مرة أخرى..

منذ ريعان شبابه وهو يحلم بدور هاملت، الذي لعبه أكثر من ممثل وأكثر من أستاذ معروف بأحقيته بهذا الدور أو ذاك، فكيف لك أن تلعب أدواراً ربما أنت غير مؤهل لها، كيف تفكر القيام بها؟ ألا تعتبر ذلك منزلقاً خطيراً؟ ما الذي يجعل الإنسان يشتط بعيداً عن بيئته أو عن مستواه؟ أليس هذا شعوراً بطلب الوجاهة المفقودة؟ أو كما قال مرة أبو العز: بعض الحمقى يغامرون بالقليل الذي بين أيديهم، حين يتطلعون إلى العلى بعيد المنال، يا لبؤس ما يفكرون..

أكلته الوساوس من تلك الأحلام المستحيلة التي استمرت تدغدغ مشاعره تارةً وأخرى تعذبه ومملأ رأسه بالصداع، فكيف الوصول إلى أفضل الحلول التي تساعده وتقدم له ما يقنعه، ظل يلهج مع نفسه في كل الأحلام التي تلاشت من بين يديه، صاح بطريقة مسرحية: هاملت هل الغدر جريمة؟ هل القتل بطريقة صب السم في الأذن، جريمة؟ أن تكون وحيداً إزاء الناس القتلة، أن تكون قد ضيعت الأثر و لم تعد تدري ماذا

مكتبة الفكر الجديد

أنت صانع بحياتك، حين تريد أن تكون أنت نفسك هاملت وليس شخصا آخر! ماذا ينبغي لك أن تصنع؟ هاملت.. هاملت.. أن أكون أو لا أكون تلك هي القضية!! وابتسم مقهوراً حين فكر لدقيقة واحدة أن هاملت قد تلبسه، وبذل جهده في أن يتصور دخول هاملت ملك الدنمارك إلى حي البياع ذي الطبيعة الشعبية وشوارعه العتيقة التي أكلت دودة الأرض جدران البيوت والأزقة التي تمتلئ بالفضلات والمزابل، إلى أين تراه سيتجه وأي القصور ستطأ قدماه؟ هل يراودك الخجل ويعتريك الحياء من بؤس الحي الذي تعيش فيه؟ إذن لماذا لا تجعل منه موضوعك المفضل، هل حقاً أنت تعشق المسرح وتريد أن تكتب مسرحية تراجيدية، أنا أدلك على تجارة رابحة وقضية محكمة البناء والتشييد. ضع أوراقك على منضدة الكتابة واشرع بتسطير العبارات عن حي البياع، كل ما تعرفه عن المكان الذي تعيش فيه، سوف تكتشف ألف هاملت، ألا تعرف هذا من قبل؟ اذكر حكاية المرأة التي أودع لديها شاب في العشرين من عمره صرة ودسها بين الحاجيات التي تعرضها للبيع على الناس، في ذلك اليوم الذي وقف الشاب ذو الوجه المبتسم أمام أم عباس، رفعت رأسها إليه سألته عن طلبه، قالت تخاطبه: ماذا تريد يا عيني كأنك ولدي الوحيد عباس الذي غاب عني من أيام، اطلب يا ولدي أي شئ إلا النقود فأنا لا أملكها الآن، اتسعت ابتسامة الشاب وتبادل وإياها النظرات والابتسامة عالقة على فمه العريض، بادلته الابتسامة، مد يده إليها بالصرة التي كان يحملها بعناية، قال يخاطبها والابتسامة لم تفارق فمه: هذه الصرة أريد أن تبقى معك ساعة من الزمن فقط يا خالة!

– وإلى أين ستمضي يا عيني؟

– مشوار وأعود إليك عندي معاملة بناء في مديرية العقار.

– اذهب رافقتك السلامة يا عيني

مكتبة الفكر الجديد

لم تفكر أم عباس أن تفتح الصرة خلال ساعات عملها في السوق، وقد وضعتها مع حاجياتها وانشغلت عنها حتى كاد النهار ينتصف، وهي لا تعلم ماذا بداخل الصرة؟.. ترى ماذا يوجد داخل الصرة حقاً؟ وإلى أين ذهب الشاب صاحبها؟ أين اختفى وترك الخالة أم عباس ومعها وديعة غير معروفة المحتوى؟ الصرة وصاحبها الشاب الذي أودع صرته لدى امرأة بائعة فواكه وخضروات واختفى ويمكن القول أنه غاب عنها و لم يمنحها فرصة التصرف بالصرة إذا طال أمد الغياب عنها؟ نعود نسأل: ألا يصلح هذا الموضوع أن يكون مسرحية وقد تعمدنا تأجيل إعلان محتويات الصرة إلى أن يقر السيد عبد الله أن ثمة مسرحية بين يديه، وسيتساءل: أين ينبغي لأحداث المسرحية أن تجري؟ ونقول له أنها ستجري في السوق الكبير الذي يفضل أن يكون على شكل فضوة واسعة مفتوحة من الجهات الأربع، من مسرب أو طريق خفي يدخل إلى السوق شاب طويل نسبياً يحمل صرة (ليس غير صرة ولا شئ آخر غيرها كأن تكون حقيبة، الصرة غير الحقيبة) ويبحث في الوجوه، كان من الواضح أنه يفتش عن وجه امرأة محددة ومعروفة لديه، وإلا لماذا توقف عن الحركة وظل يتلفت بوجوه النساء؟ السوق الذي على شكل دائرة أو يأخذ شكلاً بيضوياً، يغص بالناس المتبضعين من كلا الجنسين ومن أعمار فئوية مختلفة، الشاب الغريب والذي يدخل السوق حاملاً بيده اليمنى صرة متوسطة الحجم وإن كانت إلى الحجم الكبير أقرب، وهي ثقيلة كما يتضح من سير الشاب في السوق، تلك الأثناء يلقي الشاب تحيته على المرأة تفاجأ به يعرفها، تسأله من أين يعرفها وكيف؟ يخبرها أنه صديق عباس، تجهش بالبكاء حالما يأتي على ذكر ولدها عباس تقول له بصوت كأنها تخاطب من خلاله شخصاً آخر بعيداً عنها الآن، ومع هذا تستمر بالكلام، حتى يفاجئها بطلب هين وبسيط بالنسبه لها، وهو أن يودع صرته لديها لساعتين ليس أكثر.

– عباس غير موجود، غائب، اختفى عباس يا بني!

مكتبة الفكر الجديد

يرد الشاب عليها يطمئنها على سلامة ابنها قائلاً:

– ربما سافر إلى أحد أقربائه في الناصرية؟ وليس بعيداً أنه ذهب ليتزوج هناك! وقال لها، يقيناً سيفاجئها عباس واقفاً أمامها كما يقف هو في هذه اللحظة ليترك صرته عندها، ويتسلمها بعد ساعتين وربما أقل من هذا الوقت.. الآن، ليعلم السيد عبد الله أن المسرحية جاهزة، وأن الإطار العام ليس بحاجة إلى تحليل أو تفسير قد يعطل عفوية العمل المسرحي بلا معنى وباستطاعة السيد عبد الله أن يباشر في الحال ليعلن عن بدء مسرحيته للعرض، وأن الفصل الدراماتك ترك له لكي يجسد من خلاله موهبته، التي ما انفك يفكر بها ويلقي باللوم على الظروف التي لم تسعفه على تفجر طاقته وموهبته وثقافته المعروفة لدى العديد من أصدقائه ومحاييه، والناس الذين يعرفون السيد عبد الله عن كثب، يعرفون اهتمامه بالمسرح القديم، مسرح شكسبير تحديداً التصاعد الدرامي المدروس بعناية مدهشة، وأجرى بعد الدراسة الأكاديمية قراءة خاصة لمسرح شكسبير أسماها بالقراءة الفاحصة، وقال لهم قاسم محمد ذات يوم على مسرح كلية الفنون:

– اعلموا أن المسرح عالم مقدس يحج إليه عشاقه دون التفريق بين المسرح اليوناني القديم وبين مسرح انستاسلافسكي أو بيتر بروك أو اربال، الجميع يجب أن تشملهم محبتنا العالية.

يحاول السيد عبد الله أن يستجمع ثقافته المسرحية لتهيئة المناخ الفني الملائم، من أجل العمل على إعداد مسرحية عراقية مناسبة وتحت عنوان:– الصرة –.ولا يفكر الآن إلا لمن يسند الأدوار فالأمر في نهاية المطاف واضح وبيّن للجميع، لا يمكن أن يكون مجرد ثقافة وحدها، وضحك عندما خطرت في ذهنه عبارة مثيرة للانتباه وليست من قاموسه اللغوي: لنشمر عن السواعد، قال الفن لا علاقه له بالقوة، إنما ساحته العقل والعاطفة أيضاً جزء من هنا وجزء من هناك..

مكتبة الفكر الجديد

بعدما تسلمت أم عباس الصرة من الشاب الغريب الذي قال لها: أنه صديق ولدها عباس المختفي منذ بضعة أسابيع. وضعت صرة الشاب الذي لا تعرفه، بين حاجياتها القليلة وتحت سلال الخضروات والفواكه، التي تعرضها كل يوم في السوق، هي وغيرها من سلع جاهزة للبيع، ففي كل يوم فجراً تذهب أم عباس مع عدد من النساء الأخريات اللواتي يعملن معها في السوق، يذهبن إلى مناطق أخرى بعيدة لجلب البضائع والسلع، من هناك، مناطق فيها أسواق كبيرة جداً تسمى – علوة –، من تلك العلوة تتبضع أم عباس مع حشد النسوة ثم المجئ إلى سوق البياع، لعرض بضاعتهن مع الرجال العاملين في السوق، الجميع يعرضون بضائعهم على من يشتري، من الناس الذين اعتادوا التبضع من الأسواق التي تعرض، البضائع والسلع الطازجة، ولا يثقون بالحوانيت والدكاكين الصغيره المنتشره، في الحارات والأزقة أو عند منعطفات الشوارع الكبيرة الأخرى، التي لا تقل عن تلك الأسواق الكبيرة التي تعمل أم عباس في واحد منها، هو سوق البيع الذي استلمت فيه صرة من قماش ذات حجم متوسط، وضعتها بين حاجياتها من شاب غريب لم يسبق أن تعرفت عليه من قبل لكنه قال لها بصوت ملىء بالثقه أنه صديق قديم لابنها عباس وحالما ذكر الشاب الغريب اسم ابنها، تسلمت منه الصرة بكل أريحية وخاطر طيب وهو ما عرفت به أم عباس بين العاملين في السوق، تمكنت ذلك اليوم من بيع الكثير مما جلبته من تلك العلوة، حتى إذا انتصف النهار تنبهت إلى وجود صرة ليست كبيرة لكنها ثقيلة ولكن من الصعب على أم عباس أن تحملها معها إلى البيت، خصوصاً، إذا أرادت الاحتفاظ بها كأمانة وهيْ تتذكر القرآن الكريم: وردوا الأمانات إلى أهلها، فقررت أن تعرف طبيعة الأمانة لتقرر إن كانت ثمينة، عندئذ يكون من الضروري أن تفكر في شخص يساعدها على وضعها، في سيارة تاكسي لتذهب بها إلى البيت، في تلك اللحظة التي امتدت فيها يداها إلى الصرة لمحت وبصورة خاطفة وجها تعرفه من

مكتبة الفكر الجديد

ساعات فقط، لكن الوجه اختفى في الحال وما عاد باستطاعتها التأكيد على أنها لمحت ذلك الشاب، غير أن أصابعها كانت قد تورطت في فك عقدة الصرة بقوة وبإصرار على الدخول في المأساة، حيث يرى ذلك الشاب كيف استطاعت صرته التي تركها أمانه لدى الخالة أم عباس، كيف أحالت محتويات الصرة أم عباس ومن حولها إلى أشلاء متناثرة، في كل مكان وزاوية من السوق الذي تداعى منه الجانب الهش، لم يستطع أحد أن يحصي القتلى في السوق، لكن الناس الذين هرعوا إلى المكان، انتبهوا إلى وجود شاب يقف على ناصية السوق ويكشف عن ابتسامة تشفّي خبيثه، سيحاول العثور على ذريعة تبعد عنه الآخرين الذين انتبهوا إلى وقفة التعالي التي يقفها هناك، أحاط به عدد من الشباب القريبين من وقفته المريبة، ووجّه له أحد الأولاد صفعة مباغتة، وكررها آخر جعلته يترنح في الهواء ويعض على شفته السفلى ويطلق ساقيه للريح، وانتبه جميع من يعرف أم عباس أنها لم يعد لها وجود بالمطلق وأن مكانها سيظل خالياً من وجودها الطبيعي في كل يوم إذا خامرنا الشك أن الشاب الذي كان يقف على الناصية، هو الشاب صاحب الصرة فالأمر يصبح من الضروري التصدي له، من قبل السيد عبد الله إذا ما أراد أن يكتب مسرحية تراجيدية، توازي في الفجيعة مسرحية هاملت التي ظل لسنين عديدة يفكر في تجسيد الشخصية الرئيسية أو أي شخصية أخرى، من شخصيات هذه المسرحية، واذا ما وضع الأمر نصب عينيه بصورة جادة سوف يجد عمله هذا لا يقل أهمية عن أي عمل تراجيدي آخر وما أثار الانتباه أن السيد عبد الله شرع بإعداد نص مسرحي عن الذي حصل وجرى هذه الأيام وكذلك أيام الورى.

استأذنت هند من أمها للذهاب إلى بيت الخال عبد الله كما يلقبه جميع من يعرفه عن قرب، كان الطريق من حي التراث (حيث تسكن مع أمها وأخوتها) إلى حي البياع (هناك يسكن الخال عبد الله) لم يكن

مكتبة الفكر الجديد

بعيداً ولكنها وجدته طريقاً طويلاً بل ومتعباً و لم تنتبه الأم إلى ما كان عليه حال ابنتها في تلك الساعة، فقد بدت الكآبه واضحة على محياها وتقطيبة وجهها، وهذا ما انتبه إليه الخال عبد الله حالما التقت عيناه بعينيها، عندئذ أدرك أن ابنة أخته (لا بد أنها جاءته لأمر خاص) التي يحبها من أعماقه حقاً، وهي أيضاً تعتبره مثالاً لها في الكثير من الأمور، وهو بالنسبة للطالبة هند ليست مجرد ابنة أخت حاول الزمن تحطيمها بكل جبروته لكن الزمن توقف أمام إصرار (الأخت) من أمه وأبيه وهو كثيراً ما قال لها أنه يفتخر بأن له أخت شجاعة (تذكّره بالأم الشجاعة مسرحية الألماني العتيد اولد ابرشت)، لا بد وأن البنت تعاني من خطوب صعبة أو أنها تشكو من الجهد الذي تبذله في متابعة دروسها في الكلية وهي الآن في المرحلة ما قبل الأخيرة، لكنه لم يشأ أن يتكلم معها أو يبادر بالسؤال، عن الذي تعانيه وشحوب صفحة وجهها تشي بذلك، إنما أرجأ الامر إلى استعدادها هي بالذات للكلام، وكان هو الآخر يشكو من خلو الطريق من الصديق، كما يقال عادة، لذا أراد لها أن تتكلم وتملأ الفراغ الذي يعاني منه السيد الخال، تتكلم وتمنحه فرصة أن يشعر أنه ليس وحيداً، وتمنى أن ينطلق لسانها بدفق من الكلمات، ولما استُقبلت (هند) من قبل العائلة، واحتضنوها واحداً بعد الآخر، ارتقت السلالم القليلة إلى غرفة الخال عبد الله، في الطابق الثاني من البيت، حيث لا يوجد أحد في ذلك الطابق سواه، وأول ما واجهها من صور ولوحات وكتب، ذلك الزخم الكبير من مؤلفات الآخرين، وزيارتها للمكتبة (الغرفة) ليست الأولى، ولكن هذه المرة تختلف عن غيرها من الزيارات السابقة (فقد جاءت تشكو إليه جور الزمان) نظرت بإمعان إلى الجدار الذي يحمل المزيد من الكتب: - كتب، كتب، ماذا يفعل بهذا العدد الكبير من الكتب، تذكرت أحد أصدقائه حين تحدث عن أهمية الكتب.. قال: آه لو كانت محتويات الكتب يمكن أن نشربها، لشربناها مرة واحدة وأرحنا أنفسنا من عذاب القراءة التي لا نجد لها الوقت الكافي

مكتبة الفكر الجديد

للاطلاع على ما نريد من كتب نحبها ونريد أن نكون قريبين منها، كيف لنا أن نلتهم مرة واحدة روايات عظيمة مثل روايات الفرنسي ستاندال والإيطالي امبرتو أيكو وقصص بورخس وروايات ماركيز ونجيب محفوظ وغيرهم، يا الهي كيف احتواء المعرفة دفعة واحدة؟ وقال لها: هل تحبين الكتب؟ فلم ترد على صديق خالها الذي سمعته يناديه: أبو العز، لم تجب على سؤاله لأن الخال سبقها للقول:

– هل تريد أن تمتحن ثقافة هند حبيبة خالها؟

هذه اللحظة أقسمت مع نفسها: – حسناً ها هي الكتب أمامي سوف أتعهد بقراءتها كلها كل الكتب الموجودة هنا والأخرى التي في أماكن قريبة أو بعيدة عن هنا، أقسم بالله العظيم أني سأتولى قراءة كل ما تقع عليه يدي من كتب إذا وجدت حلاً لمشكلتي مع رياض، ولكن هيهات أن يذعن ويوافق على مقترحي، لقد صرعه كلامي حالما تلفظت عبارة الزواج أمامه، كان الغثيان قد أصابه في الحال، وقد ألجم فمه وما عاد بقادر على الكلام معي وظل صامتاً خلال جلستنا، وهو يرى كيف تذرف عيناي الدموع بحرقة، كان ينظر إليّ كالأبله ولكن بغضب أيضاً، وكنت أتمنى الموت ساعتها لأنه لم يخفف عليّ ثقل المصيبة التي كان هو سببها الرئيسي، وكانت القوادة أم فيصل قد أعدت له كل مستلزمات الجريمة، ولما انهارت قواي انبرت للدفاع عني وأنا أعلم أنها غير صادقة في ثورتها على رياض، فهي التي جاءت به وفتحت له بيتها المريب ذاك، كيف تسمح له أن يأتي بفتاة لا تعرفها من قبل؟ يأتي بها بحجة أنها زوجة المستقبل، يقول عبارته تلك ومسحة من سخرية تطوف على محياه، لم أفهمها بادئ الأمر، كنت مرتبكة ولا أدري ما الذي حدث لي وما جرى تلك الساعة، فقد أدركت أني حطمت حياتي برغبة دفينة مني ودون توقع للنتيجة المشؤومة القادمة بكل زوابعها وتوابعها وإني لصابرة

مكتبة الفكر الجديد

على ما كتبه لي الله أو الحظ وربما تلك هي المصائر التي يواعدنا بها قدرنا، ونحن لا علم لنا بتفاصيلها ولو أدركنا ماذا سيلاقينا في طريقنا إلى مصيرنا المجهول، لتداركنا ذلك كله وبرمشة عين تتغير أقدارنا ولتمكنا من تحديد المستقبل الذي نريده. وطالعها في المكتبة الكبيرة صف من الكتب، توقفت (قبل أن يلحق بها الخال عبد الله أو أي شخص من أفراد أسرته التي هي أسرتها أيضاً) عند ذلك الصف من الكتب كبيرة الحجم امتدت يدها إلى أول كتاب تحط عليه عيناها وتعجبت من أوراقه التي بدت صفراء: ((... وأدس رسالة آني في محفظتي: لقد أعطتني ما كانت تستطيعه، إنني لا أستطيع أن أرتد إلى المرآة التي أخذتها بيديها وطوتها ووضعتها في الظرف، ولكن هل من الممكن التفكير بصيغة الماضي؟ أننا طوال تبادلنا الحب، لم نسمح لأدنى لحظة من لحظاتنا ولا لأيسر همومنا أن تنفصل عنا وتظل في الخلف، الأصوات، والروائح، وألوان النهار، وحتى الأفكار التي لم نتصارح بها، كنا نحمل كل شئ وكان كل شئ يبقى حياً متيقظاً، ونحن لم نكف عن التمتع بها وعن التألم منها في الحاضر، يستوي في ذلك كل ذكرى، وحب عنيف لا يلين، حب بلا ظلال)) كان الخال عبد الله يقف خلف ابنة أخته ويقرأ معها العبارات الأخيرة من رواية جان بول سارتر، وقال الخال عبد الله: كيف التقطت كتاب الغثيان؟ وظلت بعض العبارات تدور في رأس هند مستغربة ومندهشة من قدرة المؤلف على استحضار صور ومشاهد قريبة من تجارب الناس الذين لا يعرفهم، وقد تبدو بعض الكلمات غريبة على القارئ الذي تفاجئه خلال القراءة لأول مرة، كما هو الحال معها الآن حيث تقرأ عبارات كأن الكاتب لديه معرفة مسبقة بما تعانيه من قلق ورعب من الفضيحه المحتملة، ..

لما اتخذ الخال عبد الله مكانه، وراء منضدة الكتابة المتواضعة والجاهزة الصنع نظر ملياً إلى هند وركز نظرته على صفحة الوجه وهي أيضاً اتخذت

مكتبة الفكر الجديد

مكانها المعلوم على المقعد البلاستيكي الوحيد، بجانب منضدة الكتابة، تبادلا النظرات وتأملها بنظرة جادة وهي بدورها لم تفه بشئ إنما التزمت الصمت المطبق، قال لها:

– ماذا حدث؟ هذه أول مرة تأتين الينا فيها والكآبة تغطي وجهك؟

.....!

– هند عزيزتي أخبريني عن أي شيئ أزعجك؟

–.....!

– يبدو الأمر خطيراً وأنا لا أستطيع معرفته ما لم تتحدثي معي بشأنه.

في تلك اللحظة بالذات لم تحتمل هند المزيد من أسئلة موجعة، أجهشت ببكاء غير محتمل بالنسبة للخال عبد الله الذي كان يهيئ نفسه لتأليف مسرحية الصرة، وقد أعد كل ما يمكن الإعداد اللازم لها، وفكر في أن يحدثها عن مسرحيته التي استقاها من أرض الواقع، وقد خطرت فكرة المسرحية لما جعل موهبته في امتحان لا مفر منه أمام تحديه الأزلي، هاملت الذي شهد الوقيعة ووقف ضدها، وهو، صحيح لم تخطر في رأسه سوى قضية واقعية وسوف يترك للخيال فسحة مناسبة للحضور داخل النص وابتسم لنفسه: وسيكتب ناقد يتناول في كتاباته الجميع دون استثناء عن حضور الخيال في مسرحية الصرة، وسيتناول ناقد آخر موضوع المسرحية في مقال يقول فيه: هل تقصّد المؤلف أن يقوم بتشويه قضية إنسانية ووطنية، عن عمد أم أنه مولع باستخدام المخيلة إلى أبعد الحدود؟ وسيرد عليه ناقد آخر بقوله: أن مسرحية الصرة هي تعبير عن مأساة شعبنا الذي خيبته الحكومات على مر السنين والحقب.

وانتبهت هند إلى أنهما انشغلا عن بعضيهما، انشغلا بما في نفسيهما من أفكار، كما انتفض الخال من مكانه حالما شاهد الدموع تنزل من عيني

مكتبة الفكر الجديد

الفتاة التي ما تخيل أنها ستنهار يوماً أمامه بهذه الدرجة المؤلمة، وأمسكها من ذراعها متردداً في أن يحتضنها بكلتا يديه المضطربتين، لكنها فاجأته أن أحاطت وسطه بتلقائية وبروح منهزمة أمام عاصفة هوجاء لم يتأكد من جوهر حقيقتها بعد، وترك لها أن تنفض غبار روحها أمامه لتستعيد هدوءها المتوقع له أن يعود إلى حالته الطبيعية، وسمع صوت البكاء المرير يتراجع شيئاً فشيئاً أمام تهدئته المتواصلة لها، كانت يده الحانية تربت على كتفها باحترام فائق يراد منه أن يقول لها أنه أهل لكل الملمات والخطوب مهما بلغت درجة الانهيار والقسوة، إذا صادفتها الآن أو في أي وقت آت، قد تعتقد أنها ليست على استعداد لمقارعته، حتى إذا هدأت هند، تبسم لها من صميم روحه التي لا تخلو من الشعور بالحيف وخذلان الآخرين الذين يعيش بين ظهرانيهم وهم في غيهم عنه سادرون، ما أراد أن يشغل بالها في موضوعات، ليست هي على استعداد لسماعها، قال بصوت جاد جداً:

والآن، دعيني أسمع منك لكي أستطيع أن أرد، عليك مهما بدا الموضوع الذي دفعك للبكاء صعباً عليك ولا تجدي القوة على تحمله، هيا تكلمي ولا تشغلي عقلي بأمور قد تبدو لا معنى لها.

كأن الكلمات التي قالها أمامها قد هيأتها إلى أن تسترد أنفاسها كثيراً، رفعت بصرها إليه ثم اعتصرها ألم شديد مرة أخرى، وضربت حافة المنضدة بأطراف اصابعها، سمعها تقول: رياض، ثم تعض على شفتها السفلى: رياض الأميري الذي حدثتك عنه قبل الآن بأشهر.

قال وقد علت وجهه تقطيبة لم يستطع أن يزيل حالة التعجب عنها:

– من هو رياض؟ هل أعرفه أم هل يعرفني؟

– نعم يعرفك من صورك في الصحف والمجلات التي تنشر أخبار الفنانين المسرحيين والشعراء.

مكتبة الفكر الجديد

قال يقاطعها: آه فهمت كيف يعرفني مع أني لم ألتقه.

– هذا ما جئت من أجله الآن.

– أن ألتقيه؟

أردف بعدها بصوت أكثر مرونه وترو:

– من أجل ماذا ألتقيه؟

– لتقنعه بالزواج، أعني زواجنا أنا وهو يا خال.

– ألستما على تفاهم مشترك؟

– نعم، نعم يا خال نحن منسجمان تماماً ولكن رياض..

بادر بالقول: لا يريد الزواج أليس كذلك؟

– بالضبط يا خال.

– دعيه يفكر أفضل من الضغط عليه.

– لقد أعطيت له من الوقت ما يكفي!

جمع عدداً من أوراق متناثرة وصنع منها حزمة على هيئة دفتر قابل للطي في أي وقت يريد وشاهدته يفعل ذلك مرتين خلال جلستها معه دون قصد منه، وفجأة بادر بالقول أنا على أتم الاستعداد مولاتي لتقديم الخدمات للغالية هند، ماذا تقترح الملكة علينا أن نفعل الآن أو غد، وكل غد آت قريب؟ علت ثغرها ابتسامة مشرقة لم يشاهدها منذ دخلت عليه صومعته، كما يطلق على غرفته المنعزلة في الأعلى، قال مسروراً من أعماقه: آه هيا ابتسمي أرجوك، ألا تعلمين كم أحب هذه الابتسامة؟ اتسعت الابتسامة الرقيقة أكثر من السابق، قال: أنا أحب الشاي، دعيهم يجلبون لنا قدحين من الشاي وبعدها نتكلم كما نريد، استأذنته في جلب قدحي الشاي من الأسفل، قالت بصوت خفيض كأنها تكلم نفسها: أنا

مكتبة الفكر الجديد

سوف أعمل الشاي بيدي.

تركته وهبطت نحو الأسفل خطواتها تسير الهوينا، لم تكن متعجلة خلال عملها في صنع الشاي، كانت تود أن توضح له كل شيء يخص رياض الأميري ابن تاجر معروف في سوق الشورجة، واحد من تجار أدوات الزينة المستوردة من مناشئ متعددة، أبرز تلك الدول هي أقطار شرق اسيا وبعض دول الكمنولث، تاجر ثري يعتمد على ذكائه وفطنته ومنه أخذ رياض إحساسه بالثقة بنفسه، الكثير من الزملاء لم يستبشروا خيراً بعلاقتي به، كان بعضهم يجدها غير متكافئة، وعائلتي لا تملك أبسط وسائل المقارنة والموازاة بين الأسرتين، وكان أحد زملائها محمد الترك يسمعها كلاماً ينطوي على تحذير صريح مع لمسة خاصة من السخرية، التي عرف بها محمد الترك: (تروح فين يا صعلوك بين الملوك!) وكانت لا تملك جواباً لترد عليه، لأن مقدرته في الرد عليها ستكون قاسية، ومحمد الترك ليس الوحيد من أوحى لها بعدم التكافؤ بينهما بل زملاء آخرون استهجنوا استسلامها الطوعي لرياض الأميري الذي لا يؤتمن على حد تعبير إحدى زميلاتها، وذات يوم قال لها محمد الترك: يجدر بالإنسان أن يدرس خطواته إذا أراد أن يتحرك إلى أمام لأن من الجائز أنه يكتشف في الأخير أن الخطوة تلك كانت إلى الوراء، وكان قد خيل إليها، أنه هو الآخر يحوم حولها، وانه لا يجرؤ على مصارحتها أو كشف رغبة دفينة تجاهها، وذات يوم حدثتها زميلتها منال قائلة: هنا زميل لك لا يكف عن الحديث عنك، وإن كان بعض كلامه يبدو لنا ينطوي على نوع من السخرية، لكننا نعلم أنها سخرية المفلس أو العاشق الذي لا يملك ما يدافع به عن حبه، وشعرت بالأسى يجتاحها وهي تعد الشاي بصورة نهائية لتصعد به، الأسى كان بسبب إهمالها لذلك النصيب الذي قد يلائمها وتنسجم معه في حياة تحسد عليها، ولكنه لم يفتح فمه مثلما فعل رياض، حين فاجأها في أحد الضباحات، عندما مد يده لها قائلا: أهلاً هند، تصوري ليلة أمس لم

مكتبة الفكر الجديد

أنم من كثرة التفكير بك، اعذريني إذا طلبت منك تفسيراً لعدم النوم ولماذا أنت تحديداً؟

كان قد ألقى على أوراقه التي هي عبارة عن مسودة لمسرحية عراقية المحتوى والأشخاص وفكر في إمكانية تعرف الناس على أنفسهم في المسرحية إذا قدر لها وقدمت على أحد مسارح العاصمة التي ينتظر عودتها للحياة من جديد، وابتسم لنفسه راضياً عنها لأنه يعتبر نفسه أحد المساهمين في حركة المسرح العراقي، شأنه في هذا الذي يفكر به شأن العاملين في المسرح باعتباره مدرسة أو بيتاً وربما في أحيان كثيرة ماوىً، ولقد كشف له زميله البصري ذات يوم أن أمثاله ضرورة للمسرح العراقي، ساعتها سأل صاحبه هل حقاً أنه، اصبح من لوازم المسرح؟ وكيف؟ غير أن البصري بادره ضاحكا: ألا يكفي اسمك عبد الله، تكتب وتمثل وتقدم المزيد من الخدمات للجميع، غير أن هذا الكلام جعله في حيرة بدل أن يوضح له الالتباس ويفك ألغازه، وقال مع نفسه، سوف يفرح أبو العز إذا عرف بفكرة مسرحية الصرة، وفكر أن من الضروري الحفاظ على وحدة موضوع المسرحية، وبتأكيد موضوعها. الذي سيكون الإرهاب، وأنه سيحافظ أيضاً على الشخوص فيها وقد يزداد عددهم ولكن لن ينقص واحد منهم وسأعطي أم عباس وهي تأخذ الصرة من يد الشاب الإرهابي، ملامح امرأة جادة ومخلصة في عملها وأيضاً ترحب بالجميع كأنهم أولادها أو من أقاربها، وبهذا يكون قد تفاعل مع شخصيات المسرحية وخلق وحدة انسجام في الموضوع، وعندما يعمل جاداً على تعميق مسار الشخصيات، من الضروري العنايه بقدر واحد من الاهتمام والرعايه كما لو كانوا كائنات حية، ورسم خطة عمل في رأسه فكر في تنفيذها على الواقع حالاً ولن يكتبها على الورق، لكي يحافظ العمل على عفويته وبمستوى إدارته على خشبة المسرح، وقال لا بد من إشراك اكبر عدد من الممثلين، لإعطاء المسرحية ثقلاً حقيقياً.

مكتبة الفكر الجديد

لم يتفاجأ بدخول هند عليه حاملة صينية الشاي، قدمت له قدحه وأخذت قدحها:

– أين تريدين أن التقيه، وكيف؟ أعني ما هي الصيغة وما هو التبرير للقائي به لا أريد لخطابي أن يكون مرتبكاً أمامه خصوصاً وأنا لم ألتق به من قبل؟

– الأفضل، أن تتعرف عليه في الكلية، تأتي إلى هناك وأكون قد أخبرته لكي لا يتغيب عن المجيئ إلى الكلية ولو بالمصادفة، وأتمنى أن يكون اللقاء طبيعياً، ويا ليت لو كنت ودوداً معه فأنت لا تعرف كم هو متعالٍ في بعض الأحيان..

وضحك الخال عبد الله من عبارة متعال، وسألها:

– ولماذا هذا التعالي أليس ما زال طالباً ويأخذ مصروف الجامعة من أهله؟

– نعم نعم ما زال طالباً معي في المرحلة الثالثة من الكلية ياخال.

– طيب إذا كانت رغبتك أن أراعي بعض نزواته، سوف أعمل على ذلك بالتاكيد!

كانت بعض أساريرها قد توضحت، ولكنها ما زالت خائفة من أن يفتضح أمرها مع رياض، وفكرت جادة إن كان من الضروري أن يعرف الخال عبد الله حقيقة الأمر مع رياض أم الأفضل أن تترك لرياض أن يتولى القضية بنفسه، ولكن ماذا سيقول له وكيف؟ وهل ستطمئن للذي يقوله رياض نيابة عنه وعنها؟ ومتى شعرت بالأمان معه، خلال فترة حبهما معاً، وقالت لنفسها: لا أظنه متعلقا بي مثلما أنا أحبه وأريد العيش معه.

– يا خال أريد أن أكشف لك أمراً يجثم على قلبي ومن أجله جئت إليك، إذ لم يعد من ضرورة لإخفاء هذا الأمر بيني وبينك، ولكن لا أدري كيف سأحكيه ولا يتوقف قلبي ويسقط بين ضلوعي؟ أنا يا خال في ورطة

مكتبة الفكر الجديد

مع رياض، وسأكون صادقة في كلامي عن هذه الورطة.

نظر إليها و لم يستطع إخفاء دهشته مما تفوه أمامه وإن بدت نبرة صوتها مضطربه بوضوح، لكنه كان يفكر جاداً ما الذي يستطيعه، إذا فعلاً كانت ما ستقوله ورطة:

– لا تخفي عني أي شيء، لا تجعلي موقفي أمام الشاب ضعيفاً إذ في الأخير ليس لصالحنا أليس كذلك؟

في الحال ردت عليه:

– نعم. نعم يا خال ما تقوله عين الصواب.

أدرك انها ستنهار بين يديه إذا استمر بالضغط عليها وليس من المعقول أن يدفعها إلى نوع من التخبط أو الفوضى الذهنية بحيث لا يمكنه أن يقنع أي أحد من أفراد العائلة إذا صعد إلى غرفته الآن ووجدها تبكي وعيناها حمراوان من شدة الانهيار، الذي أحاط بها..

– ليس رياض وحده المذنب في الورطة التي أنا فيها، أنا أيضاً أتحمل قسطاً من الذنب يا خال!

شاهد كيف نزلت دموعها ثانية، ولكن بصمت هذه المرة. قال وصوته يتهدج بنبرة مرتبكة:

– للمرة الثانية تقولين، ورطة؟!

– نعم لا ينطبق عليها غير هذا الاسم، يا خال.

بعد فترة صمت قصيرة، عض على شفته السفلى ثم حدق بيديه يقلبهما، يتفرس بهما كأنه يراهما للمرة الأولى: أصابعه العشرة، تأملها ملياً، علت صفحة الوجه صفرة قاتلة تميل إلى قسوة دفينه أو نوع من تقريع الذات لا يدري متى سيبدأ الجلد القاسي:

مكتبة الفكر الجديد

– دعيني أفهم هل قمتما بالحماقة الكبرى؟

.....؟ !

– هند، صمتك هذا يعني نعم؟

.....!

– لا أصدق أبداً أبداً..

– هند حبيبتي العزيزة تعبث بسمعتها؟

.....!

– أخبريني كيف سأتصرف معه؟ ماذا يتحتم عليّ من موقف تجاه شاب لا أعرفه من قبل، أنت تعرفينه، لا أدري أي كلام عليّ أن أتكلم معه؟

– كل ما تقوله أوافق عليه يا خال.

– متى تريدين أن ألتقيه؟

– الأمر يعود لك أنت، وإذا أردت الوقت المناسب، ربما الثلاثاء أي بعد أربعة أيام، هل يلائمك هذا الوقت؟

– وهو ألا يعلم بالموعد، الساعة واليوم؟ هل اتفقت معه قبل المجيئ إلى هنا؟

– نعم، لقد أرغمته على اللقاء بك يا خال!

– قلت أنه يعرفني من صور شاهدني فيها؟

– يعرفك جيداً أظن سأل عنك وربما قام بزيارة إلى المسرح حيث تعمل.

اندهش الخال عبد الله لهذا الخبر الذي فاجأته به هند، هل يمتلك صديقها روحاً بوليسية بحيث يكون قد تتبع الخال بصورة سرية لم يعلم بها خلال تواجده في عمله ولكن: كيف استطاع رياض دخول المسرح

مكتبة الفكر الجديد

الوطني؟ من أجاز له دخول مؤسسة حكومية خلال الدوام الرسمي، ترى أتكون هند قد شجعته على متابعتي دون قصد سيئ إنما بدافع المعرفة الأكيدة إذا أراد التعرف عليّ، ترى كم من الناس تتم مراقبتهم يومياً؟ وماذا سيجدون لدى رجل مثلي لا يجيد من مهنة في حياته، غير الفن الذي وهبه كل حياته و لم يستطع أن يشق فيه طريقه، بين مجموعة الخنازير التي تتحول بقدرة قادر إلى حيتان، أكثر من عشرين عاماً في خدمة المسرح العراقي، كتابة وتمثيلاً. و لم يسمحوا لي أن أتبوأ مكانة لائقة، تجعلني أقف على خلفية مناسبة للإنتاج المسرحي الذي ما زلت أحلم بتحقيقه حتى الآن، دائماً كنت أقول لأصدقائي الذين نطلق عليهم بالصعاليك: هل نحن من أبناء هذا البلد الذي ينام على بحر من الثروات، التي تحسده عليها دول الجوار والشعوب الفقيرة التي لا تملك شيئاً من الثروات الطبيعية أم نحن ضيوف جئنا وتشبثنا بتربته؟ الويل للحكومة التي يجوع شعبها وهي تملك الثروات الطائلة، الويل كل الويل، للدولة التي يجوع فيها ويعرى الفنان ويموت منفياً من خيرات بلده. فكر أيضاً في – الصرة – مسرحيته المنتظرة التي يخطط للشروع بكتابتها قريباً، وسينتصر لواحدة من الناس المعوزين، الناس الفقراء العاملين في سوق الخضار والفواكه والسلع اليدوية البسيطة، سينتصر إلى الخالة أم عباس التي كانت ضحية طيبتها، ويكون من الأفضل تتبع حركة الشاب، الذي يودع الصرة لديها بحيث يكون باستطاعة مشاهدي المسرحية، أن يدركوا ما سيقوم به الشاب هو عمل إرهابي، وليس صحيحاً إخفاء ما يودعه عند أم عباس على أساس المفاجأة للمشاهدين وصولاً إلى ما يسميه النقاد لحظة التطهير، كلام من هذا النوع ما عاد ينفع مع موضوعات محتدمة لها طابع التضحية البريئة وهو موت مجاني يعاقب عليه القانون بأشد العقوبات قصاصاً لأن ما يحدث هذه الأيام هو بحد ذاته يعني أكبر من صدمة مروعة لكل امرئ لا يعقل موت العشرات من البشر موتاً مجانياً، لا يعقل أن نسكت عن هذا الموت بدون

مكتبة الفكر الجديد

إدانة شديدة اللهجة، وليس مثل كتابة المسرحية التي تدين أفعالاً سوداء، لا يستطيع العاقل اتخاذ الصمت إزاءها، إذن لا مفر من كتابة المسرحية التي تدين بوضوح أفعالاً لا تنم إلا عن أفكار تنافي العقل!

– من يعرف بهذا الأمر سواي؟

– أتقصد الحماقة مع رياض؟

وسألها مندهشاً:

– هل توجد حماقة غيرها؟

– لا أحد، أنا وأنت يا خال فقط، لا يوجد أحد آخر أنا أخشى أن ينتشر الأمر، وتصبح الحماقة فضيحة!؟

.....!

– يا خال ماذا نفعل إذا رفض رياض أي مقترح تقدمه له؟

– أنا الذي يسأل، ما الحل إذا رفض أي مقترح؟

.....!

– طيب، قبل أي شيء يجب ألا تعرف الوالدة أعني والدتك، فهي لن تحتمل خبراً كهذا؟ هل هذا الأمر مفهوم؟

– يا الهي، تحصل كارثة لن يستطيع أحد أن يهدئها،

نهضت متثاقلة ونظرت من النافذة الوحيدة في الغرفة، غابت نظراتها وسط الحديقة المتواضعة والمعتنى بها عناية تفوق أية عناية أخرى بأي شيء في البيت، بدت النباتات المتسقة متناثرة في الحديقة ولكن بقصدية ملموس منها التوزيع العادل بين النباتات الصغيرة والكبيرة والبساط الأخضر الصغير نسبياً يغري اليد على ملامسته، ظلت تحدق به كما لو تراه لأول مرة: من يعتني بالحديقة؟ في البدء قالتها كأنها تخاطب نفسها،

مكتبة الفكر الجديد

ثم ارتفعت نبرة الصوت عالياً، نهض الخال من وراء منضدته ووقف بمحاذاتها:

- لمن كنت تنظرين؟

- من يعتني بحديقة البيت يا خال؟

- أنا وجدتك وخالك ابراهيم!

لو أجد من يعتني بي مثلما يعتنى بهذه الحديقة!!

لم يرد عليها، إنما تشاغل بقلم حبر الجاف يقلبه بين يديه، وينظر جانبياً إليها عمداً وهي تعرف معنى نظرته التي زرعها الآن كما لو زرع في الأفق علامة لا تمحى، وانتبهت إلى أن المساء يتقدم وقد يداهمها الوقت وقد قررت ألا تمضي الليلة في بيت الخال، عليها أن تعود إلى الدار، في ذلك الحي الكئيب، الخالي من أي بهجة أو فرح يصادف المرء، وضعت يدها تمسك ساعد الخال عبد الله وقد أدرك أنها تطلب أن يتكفل إعادتها إلى الدار، والغريب وجدها تزداد كآبة أكثر، مما جاءت قبل ساعتين من الآن، واندهش لذبولها السريع أمام عينيه، وهو غير قادر على أن يفعل لها شيئا أو يعدها بحل حاسم، ومن أين له تلك المقدرة التي تجعله شخصاً له من القوة على إعادة الأمور إلى نصابها كما يقال، وتأملها وهي تهبط إلى أسفل وحدها، بعد أن أعفته من النزول معها وهي تردد أمامه:

- مثل كل مرة ليس غير ابراهيم من يوصلني إلى البيت، وقال لها:

- أخبريني إذا استجد أي شيء والموعد يوم الثلاثاء القادم في كلية التربية، أليس هذا صحيحاً؟

هزت رأسها علامة الموافقة، قبلته على خده بسرعة وهبطت السلالم

مكتبة الفكر الجديد

القليلة، ليبقى وحده في غرفته التي تتسم بطابع الهدوء، والعزلة: ترى كيف سأعرفه أليس أمراً طريفا أن يعرفني ولا أعرفه؟ سيتأملني عن بعد ويحاول تحليل شخصيتي، هذا الصنف من الأشخاص أعرف الكثير من نزعاتهم بل ونزواتهم، سألتقيه وأتحدث معه عن مستقبلهما المشترك، ترى هل سيصغي للذي أقوله له عن هند باهتمام أم تراه سوف يسخر مما أقترحه عليه بخصوص إنقاذ البنت من وصمة عار قد تودي بحياتها؟ إذا ركب رياض رأسه كما يقال، ورفض الكلام عن أي موضوع يخص هند، سأرد عليه في الحال: - أنا الوحيد من خولته للحديث عن الحماقة المشتركة لكما، وربما سيتجرأ ويتحدث معي بلغة أفهم منها عبارات التهديد!! أليس هذا ممكناً؟ كل شيء جائز في هذا العهد غريب الأطوار.. كان عليه أن ينتظر إلى يوم الثلاثاء المقبل، يوم يلتقيه..

والآن عليه أن يكف عن التفكير به وبما ملأت هند أذنيه من لغو لا طائل منه، عليه أن يعيد النظر بحساباته كلها خصوصا مشروع المسرحية التراجيدية كما خطط لها من قبل، وأن يؤجل الانشغال بقضايا ممكنة التأجيل، وأصر على أن يكون عنوان المسرحية (الصرة) وقال متسائلاً: ألا يبدو اسم الصرة موحياً بالكثير من المعاني والإشارات والرموز التي ستدين العشرات من مافيا السوق من خلال موت أم عباس غير الإنساني؟! ولو كان للأسواق حماية كافية لما انتهت أم عباس تلك النهاية المأساوية لماذا لا يكون العنوان (الصرة أرسلت من جهنم). صحيح سيبدو العنوان مثيراً للوهلة الأولى ولكني أراه غير دقيق في الإيحاء، حسناً سأتبع طريقتي في معالجة العنوان وأبقيه الصرة وسوف يقدم محتوى المسرحية عنوانها، ولكن أليس هذا كلاماً خارج لغة المسرح؟ تعني أنك تتدخل فيما هو سياسة وليس فناً من الفنون، اسمع أيها المسرحي الطيب، هم، يريدون أن يبعدوك عن واجبك تجاه الناس المعدمين منذ الأزل، ألا يهمك أن تعمل

مكتبة الفكر الجديد

على النافع والجميل؟ كان قاسم محمد جديراً بمحبتنا عندما أصر على مزج التراث بالمعاصرة.. النافع والجميل معاً..

– هل لديك أشخاص يعملون في المنظمة العربية لحقوق الإنسان؟

– لا أعرف منظمة عربية بهذا الاسم!

– لقد اتصلوا يسألون عنك، لا نريد منك شيئاً، عليك أن تفهم ما نقول وإلا سوف تنتهي بحفرة، ندفنك في حفرة ونطمرها بعد أن نلقيك بها في ساعة نيأس منك ومن يريدون إطلاق سراحك بالمجان!

كانوا قد أحكموا شد وثاقه، عصبوا عينيه بقطعة قماش سوداء، حالما ألقوه في الجحر الضيق الصغير وأحاطوه من كل جانب، ووثاق عينيه بدأ يزداد ضغطاً عليه، كان يسمع لغطاً ولغواً يحيط به ويدور اللغط من حوله، أمسك أحدهم ذراعه بقوة شديدة، أراد أن يصرخ به لكنه لا يعرف النتائج لو فعلها وانتفض بوجهه رغم وثاق عينيه ويديه أيضاً المحكمتين في شد العقدة حول المعصمين:

– إذن كيف عرف المتصل ليلة أمس يطلبك بالاسم والعنوان، نريد أن نعرف من أنت؟

– أنا ممثل وكاتب مسرحي وقف التنفيذ، أعني ليست لدي مسرحية مكتوبة!!

– لكنك تاجر وسيط بين العراق والأردن، هل تنكر هذا؟

سمع صوت امرأة تهمس بالقرب منه:

– إنه يكذب، جماعتنا أكدوا عمله، تاجر وسيط بين الشركات العراقية وبعض الشخصيات العربية؟

خاطبه الرجل الأول الذي بادره بالسؤال عن علاقته بالمنظمة العربية

مكتبة الفكر الجديد

لحقوق الإنسان:

– إذن كيف عرفت المنظمة العربية أنك مختطف الآن؟

– لا أظن ذلك أبداً، وإذا حصل شيء من هذا ربما تشابه بالأسماء وربما حدث الأمر مصادفة فقط!!

– أنت مختطف الآن من يدفع فديتك؟

– لا يوجد، لا أحد في هذا الكون يفكر بإنقاذي من أي مشكلة قد تصادفني اليوم أو.....

قاطعه صوت بدا متضايقاً منه:

– كف عن الثرثرة يا حقير، إن لم يدفع أحد فديتك والله لن ترى النور بعد اليوم.

كان الرجل قد لكزه في ظهره بقوة أول الأمر، ثم عاد وضربه على رأسه وكانت ضربة ثالثة من الخلف أكثر عنفاً، تأوه وسمعوه يئن وكانوا قد وضعوه في جحر صغير، جحر أشبه بالزريبة، لم يفكوا وثاقه أو يطلقوا عينيه لتريان النور أو الأشخاص، أدرك إلا أمل له بحياة أصبحت بأيدي القتلة، أراد أن يبكي بحضورهم، حضور قاتليه أو مختطفيه، شعر بخوف دفين يتحرك، بغية كسب عطفهم عليه إذ قال: صدقوني معلوماتكم ليست صحيحة، وإذا أردتم القسم بأي مقدس.....

صاح به احدهم ظنه صوت جديد:

– اغلق فمك لم يطلب منك أحد أن تقسم لنا حتى نصدقك، أنت تاجر معروف لدى تجار الشورجة، سألنا عنك، أخبرونا عما تملكه من ثروة.

مكتبة الفكر الجديد

– كلا. أبداً لم تسألوا عني أحداً، اذهبوا إلى أهل المسرح وسوف تمسكون بالحقيقة.

كانوا يتبادلون النظرات بجزع واضح ذلك أن نبرة صوته أقنعتهم هذه المرة، وفوجئوا باقتراحه حول السؤال من أهل المسرح ولكن كيف يمكنهم الوصول إلى هناك؟، لكي يأخذوا الحقيقة وتصبح ملك أيديهم، تبادلوا النظرات الحيرى للمرة الألف دون جدوى وارتسمت الريبة والشك على وجوههم.. انسحبوا الواحد بعد الآخر، تركوه لبعض الوقت لكي يقرروا ما إذا كان كلامه صادقاً أم لا، هدأت بعض أساريره عندما عرف أنهم أصبحوا خارج المكان، وهتف مع نفسه بحرقة: الهي لماذا تخليت عني؟ وقال كأنه يخاطب نفسه أو أي كائن آخر: – هذه صيحة السيد المسيح أيها المسرحي الطيب، ساعة الصلب. هل أنت المسيح يجر في المنفى صليبه! وضحك مع نفسه، حين ذكر السياب من خلال قصيدته، وقال: السياب مسيح آخر، ولكن من هو أكثر عذاباً؟ أنا أم السياب؟ لست أدري المصير الذي ينتظرني على أيدي هؤلاء الفتاكين الأفاكين القتلة، هل ثمة كمين كان بانتظاري، خدعة أو مؤامرة؟ كيف تحولت في تفكيرهم من مؤلف مسرحي إلى تاجر وسيط؟ يا الهي هل اتصلَ حقاً أحدهم من المنظمة العربية لحقوق الإنسان؟ ولماذا هذه المنظمه بالذات؟ هل اتصل المترجم اللعين بعد انقطاع دام لأكثر من ثماني سنوات، وكيف ومتى سنحت له الفرصة ليتذكرني في هذا الظرف العصيب، لن يحسدني أحد من أقراني إذا ما عرف في هذه اللعبة الخالية من المعنى، ترى هل توجد لدى العرب منظمة تعنى بحقوق الإنسان؟ وهل وجد إنسان لدى العرب لم يسنده حزب أو سلطة أو عصابة لا تعرف الرحمة، وبهذا يستطيع ذلك المحمي من قبل السلطة أو العصابة أن يصعر خده وأن يمشي في الأرض مرحاً، أما الرجل من أمثالي، ليس أمامه إلا الإذعان لقوانين القوة والتسلط على رقاب الناس وتقرير مصائرهم، ترى لماذا خلق الشرق مليئاً بالتعاسات

مكتبة الفكر الجديد

وحرمان أهله من أي شكل من أشكال السعادة؟ ولكن لماذا وكيف تسلط هؤلاء الأميون الأفاكون على مقاليد الحكم بغفلة من شعوبهم التي ترفضهم الآن لكثرة ما نهبوه من الحق العام؟، أي حياة تعيسة تعيشها في هذا الوطن العربي الذي دوخ الليالي؟ ولماذا لا تقل في هذا الوطن الذي اسمه بلاد وادي الرافدين، ميسوبوتاميا، أرض السواد، العراق، أيها المسرحي الطيب؟ انظر إلى ما آلت إليه حياتك التي تشبه تمثيلية يكتبها مؤلف معتوه. كان تنفسه ثقيلاً وصدى الشهيق والزفير يتردد في سمعه، وثمة دبيب في الجوار لا يدري كنهه وإلى أين تتجه الخطوات القادمة؟ أتراها إلى موته؟ أم سيعاودون التحقيق معه وهل سينتهي هذا الفصل من دراما الحياة؟ وأين ستصبح مسرحيته عن أم عباس؟ وبماذا تفكر شقيقته أم هند حين تعلم أن ابنتها ما عادت عذراء وأنها تورطت مع شاب لا يتمتع بأية محبة للناس ولا يعرف سوى حب نفسه، أي شيء سيوقف انهيارها حالما يأتي إليها الخبر أن ابنتها العاقله هند ما عادت بنتاً وانها ارتكبت جريمة لا تغتفر بحق أسرتها، وأن الأم لن تغفر لها أبداً مافعلته بنفسها، تضربها؟ وما فائدة الضرب بعد المصيبة؟ أتراها ستتستر على البنت وتحاول أن تعالج الأمر بحكمه وترو؟

كاد أن ينفجر بالضحك حين جاء تفكيره على الحكمة، وسأل نفسه جادا: هل توجد امرأة عراقية بل حتى شرقية، تتصرف بالحكمة المتوقعة في حال مواجهتها لقضية عصيبة من هذا النوع؟ أم تراها تدفع ابنتها إلى الموت أو الجنون!! وهل ستبقى أم هند، حية لا تغادر هذه الدنيا على حين غرة؟ اني أسأل عن اللحظة الأولى التي يصل فيها الخبر إليها؟ أسأل عن مصيري ومصيرها وكيف ستؤول حالتنا معاً؟ مالذي ستفعله هند إذا رفض رياض الزواج منها؟ وما هي الخطوة القادمة التي ينبغي أن تتخذها بغيابي؟ في الخارج توارد إليه صوت سيارة من الحجم الكبير وأبواب تغلق، إذن هبط أكثر من راكب، ترى كم عدد الذين نزلوا من

مكتبة الفكر الجديد

السيارة؟ ماهي أشكالهم وبأي صفة يتصفون؟ أتراهم من القتلة الذين قرأ عنهم في ما مضى؟ في أحسن الأحوال وفي أسوئها هم قساة عتاة لا تلين لهم عريكة أبداً، ولن يتراجعوا عن قرار إذا اتخذوه في ساعة شدة، إذن الويل لي منهم، هم الجناة والبغاة في وضح النهار، تواردت إليه ضجة في الخارج ولغط محتدم وسمع نوعاً من حمحمة، وكلمات توسل لم يفهم معناها ولمن يتوجه صوت الاستغاثة أو الالتماس، لم يتمكن من الوصول إلى دليل على أن ثمة حادثاً قد حدث بصورة مفاجئة أم أنه أمر دبّر سراً؟ وارتعب حين داهمته خاطرة سوداء: إنهم يختلفون بشأنه وحول الثمن الذي يجب أن يتسلموه لقاء إطلاق سراحه! وفك قيوده! ترى هل يصح الاقتراع على رأسه بهذا الشكل المزري، حتى أنهم لم يطعموه و لم يسقوه، مرة واحدة سقي قدحاً من الماء، تردد عندما أعلموه أنهم سوف يسقوه ماءً فقط فلا يخاف من الماء، وسمع تلك اللحظة أحدهم يخاطبه: – يا بطل إذا أردت اللبن سنعطيك أيضاً لا داعي للخوف، لكنه كان يرتجف من الرعب بين أيديهم رغم أنه لا يراهم، ومع هذا فهو أكثر من خائف على حياته التي أصبحت خارج إرادته، وتذكر عدد الأخطاء في حياته وقال أعني الانتكاسات والهزائم التي يندى لها الجبين، قال آه ما أكثر ما لحقت بي الهزائم وما منيت به من فشل، أكاد أصنع من فشلي قلنسوة أو قبعة وأسير بها بين الناس الذين يعرفونني أو لا يعرفون عني أي شيء، ومثلما علت الضجة قبل الآن هبطت إلى الصفر وما عاد يسمع من مكانه أي صوت أو حركة يمكن أن يلتقطها من هناك، أتراهم تلاشوا من المكان أم داهمتهم الشرطة؟ ومتى كانوا يخشون الشرطة أو يهابون القانون؟ وتذكر وسط فوضى أفكاره المحتدمة، ما رواه له جاره هاشم دقله من أن أحد الأشقياء العتاة الأقوياء، من الذين لا يهابون الحكومة، استطاع أن يختطف ضابطاً في الجيش وقال لنفسه ربما من حسن حظي أن أكون فناناً وليس ضابطاً يمكن اصطيادي، والآن أيها المسرحي المسكين من

مكتبة الفكر الجديد

سيفتديك كما افتدي الضابط من قبل أهله وذويه وربما وحدته العسكرية، هل يوجد من أهل الفن المسرحي من لديه الاستعداد لافتدائك؟ أم تراهم لا يسمعون ولا يرون! أم أنك لا تشكل بالنسبة لهم (أهل المسرح) شيئاً ضرورياً، ترى من سيسأل عنك هناك، في المسرح الوطني حيث تعمل، لا شك سيفتقدك أبو العز وربما البصري الذي لا يكف عن التفكير في الحصول على دور جديد، هل يخطر في بالك أن السيد الوزير ووكيل الوزارة والمدراء العامين، سوف يجدّون ويسعون في السؤال عنك؟ هيهات يا بطل لن يفتقدك سوى الصعاليك من أمثالك، الذين يطلق عليهم في المعارك الحامية بحطب المعركة، وأنت من أي حطب تكون؟ كانت الأفكار السود قد حاصرته، ومن بعيد جداً ورد إليه صوت مؤذن، أدرك أنه المساء قد حل على المعمورة، وقال من يصغي لصوت المؤذن من بينهم؟ لا أحد من هؤلاء الزنادقة الذين لا رادع لهم، مافيا الاختطاف والسعي للفوز بالغنيمة.. عادة، كان يخشى الليل إذا جاء وهو وحيد، يخشاه لأن في الليل تحل عليه الأفكار السود ويعتصره ألم شديد وهو لا يدري ما سبب ذلك كله؟ وقال يخاطب نفسه بألم وحسرة، أن من يحكم العالم اليوم هم: القتلة والسماسرة واللصوص ولا مفر من أن ننتظر ما سيفعله بنا، هؤلاء القتلة العتاة اليوم أو: غد أو بعد غد وكل غد لناظره قريب.. سمع دبيب خطوات خافته، خطوات لها وقع خاص دخلت عليه وسمع همساً أو كلاماً موجهاً إليه ربما، أصغى بكل جوارحه إلى ذلك الهمس ومحاولة استنطاقه، كان الصمت شيمته الآن لأنه لا يعرف فيهم أحداً كما أنه لا يثق بأحد، وسمع كلمة مسكين وغض الطرف عن الصوت الذي عرفه صوتاً أنثوياً، لأنه لا يعتبر نفسه مسكيناً بل يرى أنه ضحية خدعة قذره ليس بعيداً أن تكون هند، قد دبرتها له مع المدعو رياض حبيبها ولكن كيف تجرؤ على الإساءة لسمعتها وتعلن، أنها ما عادت عذراء، أنت تهذو ياسيد عبد الله وليس صحيحاً القول ثمة مؤامرة، إنها هند الجميلة، العاقلة التي ما كانت تذهب إلى السينما إلا معك، مع خالو عبد الله يحلو الفيلم

مكتبة الفكر الجديد

وتحلى السينما والآيس كريم بعد الخروج من السينما والحديث الحلو عن الفلم والجلوس ساعة على شاطئ أبي نوّاس وقت المساء.

والخال يبدو مزهواً بهذا الإطراء، منتشياً بما يسمع منها من كلمات وعبارات طنانة ورنانة (أمام أفراد العائلة) وكما اعتاد على القول، هند أسميتها ذات يوم بهنودة تصغيراً وتحبُّباً لها ولإسمها الذي استبدلته بهنودة وهنادي، لقد أعطيتها ما يحلو لك من أسماء التدلع والتحبب وتطييب الخاطر، كيف تتجرأ الآن وتنشر حولها الشكوك وتتهمها بالتجني عليك، بعد التحالف مع ذلك المارق رياض؟ الذي لم يتيسر لك أن تلتقيه في ذلك اليوم إنما التقيت بمجموعة القتلة الخاطفين، ساعة مغادرتك البيت وانعطافة حادة أنهيت من خلالها صلتك بالشارع الذي تسكن فيه، إذن كانوا بانتظارك يترصدونك ويحصون خطواتك، ذلك الصباح المشؤوم (كما وصفته وهم يلقونك في الجحر)، تحركت سيارة جيمسي بيضاء وحمراء أنت رأيتها وكيف استدارت وبها عدد من رجال أشداء، واحد منهم نادى عليك وليس كلهم، صاح باسمك الصريح: سيد عبد الله، ألا تعرفني؟ انتظر أريد الكلام معك لحظة واحدة. انبهرتَ لأنه ناداك بالاسم، لم يمهلك الرجلان الآخران بل سدد أحدهما لك ضربة محكمة إلى الرأس، بعدها لم تشعر إلا وجسدك يترنح داخل سيارتهم وقد أجلسوك بين اثنين من العناترة، الذين أثاروا الرعب في قلبك المرتعش، وقلت مع نفسك: لماذا؟ وقلت ترى أهذه هدية الصباح يارب العالمين؟ وبادر الذي ناداك باسمك بالقول: أحكموا وثاق يديه وحالما نقترب من المكان أعصبوا عينيه، والآخران نفذا الأمر في الحال وأصبحت حياتك رهن القدر وبين أيد اصطادتك بالقوة، وبعد لحظات من سير الجمسي اضطروا إلى أن ينزلوا جسدك بانحناءة قويه نحو الأسفل لأنهم يقتربون من إحدى السيطرات العسكرية، وأنت تصرخ: لماذا، لماذا؟ لكنهم غطوا جسدك ببطانية من الصوف، وقال أحدهم: لو كنا أغلقنا فمه وعينيه أيضاً، وبدل

مكتبة الفكر الجديد

أن يرأفوا بك رفعوا أقدامهم ووضعوها فوق جسدك، وقالوا لك إذا أصدرت أية حركة سوف نقتلك في الحال، لا تعتقد ندعك تمضي سالماً بل ستموت قبل أن يلقى القبض علينا، مطلوب منك الهدوء.. تحركت السيارة ببطء شديد، سمع صوت محركها في حال عتعتة، تأمل الحركة الآتية، إنهم الآن في مواجهة مباشرة مع نقطة التفتيش، حيث الجنود يقومون بتفتيش السيارات كافة وبدون استثناء لأية عربة تنوي المرور من نقطة السيطرة في الشارع، داخله الأمل في أن يكتشف الجنود مكانه تحت أقدام الخاطفين في باطن سيارة الجمسي، استمع إلى صوت ضابط ينادي على جندي، يطلب منه أن يفتش الجانب الآخر من الطريق، خاب أمله وتبخر مرتجاه، فقد أمر الصوت نفسه، أن يعبروا وبالفعل أصبحت السيارة، خارج سيطرة الجنود، رفسه أحدهم بقدمه وبقوة، انتفض عبد الله تحت الأقدام الضاغطة عليه، خاطبه أحدهم: لقد أحسنت صنعاً إذ لم تأت بما ينبه الجنود إلى وجودك تحت الأقدام، وإذا واصلت الهدوء حتى نصل سوف نحسن معاملتك حتى تحقيق ما نبتغيه منك وهو أمر هين وبسيط إذا جعلناه في مقارنة مع حياتك أو نهايتك، هل تسمع ما أقوله لك يا سيد عبد الله؟ أتسمعني أم أن الخوف، أتعبك وأغلق سمعك بحيث اختلطت عليك الأمور؟ كان للسرعة التي انطلقت بها السيارة، تأكيد له على أنهم يأخذونه إلى حيث لا يعلم أين هو كما أن من المستحيل أن يعرف بمصيره أحد من معارفه، وللذهول الذي أحاط به من كل جانب، كان من الصعب عليه أن يلجأ إلى البكاء إن أراد أن يزيح عنه هذا الركام من الهواجس والمخاوف، هل يصمت فحسب؟ أم يقاوم، ولكن يقاوم ماذا ومن هو الذي ينبغي مقاومته؟ وما هي حدود الفوز عليهم وما هي نتائج الفشل إذا تلقى منهم ضربة قاتلة، من الواضح أن الطريق طويل ولا يمكن له أن يخمن، إلى أي الأراضي القصية سينتهي بهم المطاف وهو في قبضتهم، السيارة تزيد من سرعتها أكثر مما مضى من وقت، عندئذ

مكتبة الفكر الجديد

يداخله شعور أنهم يتركون وراءهم العاصمة إلى الضواحي النائية، ما الذي سيفعلونه به ولكن عليه أن يسأل قبل كل شيء، ماذا فعل لكي يعاملوه كما لو كان صيداً لا يمكن التفريط به، ما هي الأخطاء التي ارتكبها خلال هذه الأشهر والأسابيع التي مرت؟ وهل يعود ثانية إلى اتهام رياض الأميري؟ والتشكيك بهند؟ هل يستسلم ليأسه ويأسها المؤلمين؟ هل صادفه يأس موٍ لم أم أنه يفترض ذلك افتراضاً، حاول أن ينهض من رقدته أن تحرك، صاح بهم متقطع الأنفاس:

– دعوني أنهض سأموت تحت أقدامكم، حرام!

نهض فعلاً حتى النصف، لكنهم أعادوه إلى وضعه السابق بالقوة، وسمع أحدهم يخاطبه:

– اهدأ يا ابن الحرام سوف نصل قريباً.

كان يسمع هذوهم والرطانة التي يضطرون للتخاطب بها، مستحيل عليه أن يفهم منها كل شيء خصوصا إذا تسارع الصوت بالكلمات، وتدفقت من أفواههم عبارات غامضة النبرة حيث اللسان يلوك العبارات ويلوي الحروف بنوع من سيطرة، على امتداد الحديث بينهم وهو يصغي دون جدوى من مشاركة مسموح له بها، لكزه أحدهم بذراعه وسحبه بعنف نحو الأعلى، وضيّق عليه الثاني الذي أخرج قطعة قماش كبيرة، ولفها على هيئة حبل غسيل بحيث يمكن بها من تعصيب عيني السيد عبد الله، قال لهم ما عدت أحتمل، تعبت أرجوكم أخبروني ما هو الذنب، الذي اقترفته بحقكم؟ صدقوني لم أرتكب جرماً بحق أحد، أنا أعرف أنكم لن تصدقوني.

ضحك أحد الرجال الجالسين على جانبيه، ضحك بسخرية لاذعة، شعر أن الرجل يتقصد هذه القهقهة وهذا النوع من الضحك، واضح يريد الاستهانة به لكي تضعف إرادته أمام مطالبيهم، التي سيفرضونها

مكتبة الفكر الجديد

عليه لاحقاً، وحين خاطبه: لماذا تضحك؟ تلقّى ضربة غير متوقعة أنه لم يخالف التوصية التي أوصوه بها في بداية اختطافه، لماذا إذن يعاملوه بهذه الوحشية وهل صحيح السكوت على أفعالهم معه؟ وبدل أن يوجه خطابه إليهم بهدوء كما متوقع من مختطف صرخ بصوت باغتهم بصيحته:

– لماذا تضربني ياسافل ماذا تريدون مني؟

ارتمى عليه الرجل وتبين أنه أقوى من المسرحي الطيب بكثير، بحيث فوجئ بمقدرته على دفعه مرة أخرى إلى باطن سيارة الجمسي التي استمرت تلهب الطريق بسرعتها الجنونية، وتنادوا فيما بينهم: أن أوثقوا فمه أيضاً، وقال الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق:

– امنعوا عنه حتى الهواء هذا الكلب، مطلوب أن يؤدب بالعصا الغليظة.

ارتعب وهو تحت أقدامهم يرفس من ضنك الحالة التي لم يعتد عليها، ومن وجعه الذي تكدس في خاطره، أراد تفسيراً واحداً يقنعه أنه مختطف لأسباب صحيحة أو معقولة!! وحاول ثانية أن يستعيد معظم الأحداث التي مرت به وكان مسؤولاً عنها وتعنيه مباشرة، أو أحداثا تهم أسرته أوالمقربين منه، وفكر في أسرته التي تعتمد في إدامة حياتها على مصدرين غير قادرين على سد رمق أفرادها بصورة ترضيه وتقنعه، هما ما تجود به السينما والمسرح من إكراميات بسيطة لكنها نافعة إضافة إلى المرتب الشهري الذي ينبغي المحافظة عليه بكل الوسائل، والمصدر الثاني، هو المرتب التقاعدي للوالد العاجز عن العمل منذ اضطراره للتقاعد حال وصول خدمته إلى السن القانوني، كان الرجل العجوز يشكو من آلام مبرحة في مفاصل قدميه وكذلك ركبتيه مما يولد لديه عجزاً على السير بصورة طبيعية، كانت العائلة تستبشر خيراً حين يدخل عبد الله ضاحكاً أو مبتسماً وهو يردد عبارة واحدة أمام الجميع: خير إن شاء الله خير، الصغار والكبار يعلنون فرحتهم على حد

مكتبة الفكر الجديد

سواء، عندما يجدون البهجة مستمرة على وجهه وهو يدور عليهم وبينهم، ويسأل عن احتياجات البيت وماذا ينقصه، ولكن الآن من يسأل عنهم إذا ما الخاطفون، أنهوا حياته برصاصة واحدة، ولكن لماذا يقضون عليه؟ وما الجرم الذي ارتكبه؟ أخذت السيارة ترتج في سيرها المتسارع على الطرقات التي يصعب عليه، أن يعرفها وأين تقع وما هي الوجهة التي سيسلكها الخاطفون؟ غير أن ازدياد ارتجاج السيارة العنيف، أكد له حتمية أن السيارة تقطع طريقاً زراعياً، أو تسلك دروباً ترابية معوجة من النادر إعطاء صورة واضحة عن نهاية المشوار الذي أصبح متعباً، غير أن السيارة لم تتوقف عن سيرها المضطرب، وشمّ رائحة دخان سجائر محلية رغم عدم تدخينه السجائر منذ خمسة أعوام، لكنه كان يجالس العديد من المدخنين في السينما والمسرح، وبقية الأماكن التي يتواجد فيها، كانت رائحة دخان سجائرهم تثقل عليه تنفسه، مع رائحة الغطاء الصوفي الذي دثروه به، لئلا يصبح دليلاً قاطعاً على اختطافهم له، وهي جريمة لن يتساهل معها القانون في أي شكل من الأشكال، هم يعرفون ذلك كما يعلم بها هو المخطوف الآن، لكنهم يصرون على فعلهم هذا بكل عناد بل وتحدٍ سافر، غير أنه يعلم أن لا فائدة من توجيه التحذير لناس ضربوا القوانين كلها عرض الحائط، وترصدوه حتى حانت ساعة مغادرته البيت، ثم ينعطف نحو اليمين حيث موقف تجمع الباصات في البياع، وكلّما داهمته تلك اللحظة واخترقت عقله، شعر أن من الممكن اصطياد أكبر شخصية غير محمية أو مسورة بالجنود والحراس وأن من الخطأ الاعتقاد أن الحماية لا تفيد أهل الفن والعلم والأدب! بل بالعكس لو كان له من يحميه من الحراس الخاصين لما وقع له هذا الحادث المؤسف، ولكن الاستهانة بالفنان في هذا البلد تجعل منه لقمة سائغة بأيدي اللصوص والقتلة ودعاة القتل على الهوية، وتخيّل نفسه في حالة كوميدية، حيث يسير في شوارع البياع وأربعة رجال أشداء يدورون من حوله، وهو لا يدري كيف يتصرف معهم خلال حياته اليومية، غير الممتلئة بالأحداث الجسام، ولكن

مكتبة الفكر الجديد

ماذا يسمي عملية اختطافه أليست من الأحداث الكبيرة والمروعة؟ ازدادت حركة السيارة في اهتزازاتها المستمرة وبصورة أتعبته، لكنه تيقن أن السيارة في سيرها الهادئ في الأمتار القليله التي قطعتها إنما توشك على الوصول إلى مستقرها، و لم يتمكن من مقاومة الألم وما يشعر به من تعاسة، جعله يعاود الصراخ بهم من جديد، وبصوت مكتوم، مما جعلهم ينفجرون في ضحكة واحدة، ورد عليه أحدهم: سنصل، سنصل يا مخبول.

وبالفعل هبطت حركة سير السيارة كثيراً وتعالى لغط أولاد يلعبون قريباً منها، حسب اللغو والصراخ نوعاً من الاستقبال له لكنه تبين في الأخير أنه سمع ذلك الهرج والمرج، في بداية الطريق إلى مكان الاحتجاز، ترى أين هم الآن وهل بإمكانه أن يستفسر عن طول الطريق مثلاً، ووجد من المستحيل أن يسأل: هذا يعني ضربة مفاجئة وقد تكون على الرأس أو الخاصرة وقد تأتي الضربة على الظهر، لن يحتمل أي تعاسة أو أذىً آخر، ومن الواضح أنهم يحاولون أن يخدعوه وأن لا يعطوه لحظة التفكير الواضح السليم الذي قد يساعده على تخمين أين هم، لذا شعر عبد الله أن الخاطفين من النوع التقليدي الذي سبق له أن قام بتجارب سابقة على أناس آخرين ربما لا يقلون عنه تعاسة وسوء حظ، المئات من المساكين الذين راحوا بالسطو المسلح وهم أنفسهم (هذا النوع من البشر يسخرون من الرجل الذي لا يقوم بعمليات السطو الليلي لأنهم يعتبرون عملاً كهذا هو تجسيد لرجولتهم حتى لو تطلب الأمر في الأخير القتل إذا صادفهم من يعترض طريقهم خلال تنفيذ عمليتهم الليلية) وأن هذا الصنف لكثرة ما قام به من جنايات وجرائم اختطاف وربما القتل على الهوية، وليس بعيداً أن بعضهم من روع الناس في قطع الطرق الخارجية التي تربط المحافظات بالعاصمة، ووجد الكثير من هذه السيطرات التي سمّيت بالوهمية، منتشرة بين محافظة وأخرى وهم أنفسهم كان يطلق عليهم بقطّاع الطرق أو السلاّبة وهكذا يثبت لنا أيها المسرحي الطيب التاريخ

مكتبة الفكر الجديد

كيف يعيد نفسه، وكم من مرة شهدنا فيها التاريخ يعيد صورته السينه أو المثلى في أحداث تتطابق فيها صورته القديمة بالجديدة، التي صنعها البشر أنفسهم!! يا الهي ماذا صنعت في حياتي من سيئات؟ ماذا ارتكبت من خطايا وحماقات حتى أنتهي هذه النهاية المؤلمة؟ لا أظن أن أحداً من الناس في مثل استقامتي!!

توقفت سيارة الجمسي بعد أن تباطأت في سيرها المتعرج، في طرقات ودروب من الواضح أنها كانت ترابية، لم يصلها تعبيد الشوارع والأزقة التي كان من المفترض أن يصل، إلى أماكن شعر أنها ريفية ونائية لطول ما قطعته السيارة من وقت ومسافة، كان خلالها قد تحطمت قواه بالكامل، وكانوا قد تبادلوا النظرات فيما بينهم بشأنه (وهو ما زال معصوب العينين موثق اليدين، مسلوب الإرادة لا يأخذ شيئاً ولا يعطي شيئاً، كأنه ينفذ ما نادى به صنوه وخدينه، ما قاله هاملت في منتصف المسرحية: الحكمة بالصمت)، سحبه أحدهم من ذراعه بقوة ملحوظة، وهمس آخر: ساعده على النهوض ولا تفك قيوده حتى المساء، ورد آخر: - تقصد حتى مجيئ الظلام؟

- هذا ما أقصده بكلامي

- وإذا تكلم الحقيقة وقال ما يفيدنا؟

- طبعاً في هذه الحالة سنكرمه ونرسله إلى أهله، معززاً مكرماً.

وقال آخر ونبرة السخرية واضحة في الصوت:

- لماذا لا نكاشفه بالمطلوب ونضعه أمام الأمر الواقع؟

- نحن لا نتأخر في ذلك إذا كاشفناه بحقيقته!!

كان يصغي مندهشاً لكلامهم الذي يراه عجيباً، هل حقاً يحسبونه، شخصاً بارزاً أو تاجراً مهماً، أين اختفى التجار الحقيقيون؟ لماذا اضطروا

مكتبة الفكر الجديد

لاصطيادي بهذه الفجاجة؟ كان يتذكر وباستمرار الأيام العصيبة التي نام فيها جائعاً وكذلك ما تفعله أمه وما يفعله أبوه، تلك الأيام غير المحتملة بالنسبة لهم، كما هي بالنسبة للآخرين، حتى الأقرباء بات من الصعب عليهم تحمل وزر ما يعانيه بعضهم، تلك هي أيام الحصار الاقتصادي على البلد، وكان العديد من الزملاء قد توصلوا إلى قرار أو رأي لا يخلو من الصحة حين قال له البصري منزعجاً مما يعاني الجميع: - حصار في الخارج يقابله حصار في الداخل، و لم تكن لديه رغبة للجواب على البصري، لكن الأخير قال له متسائلاً: عبد الله لماذا لا تجيبني على كلامي؟

- ماجدوى الكلام أرجوك دعني أفكر لبعض الوقت!!

- تفكر بماذا؟

- أفكر لماذا نحن وليس غيرنا من البلدان الأخرى؟

تلك اللحظة نهض أبو العز من مكانه، وأمسك بذراع عبد الله وهو يخاطبه:

- هيا تعال معي يا هاملت العزيز لنمضي مشواراً قصيراً ثم نرجع وأشار على البصري أن يدعهما يذهبان في مشوار قصير ثم يعودان، وقد أسلم قياده إلى (أبو العز) الذي بادره قائلاً:

- نحن جائعان وأنا وضعت يدي على مطعم شعبي محترم.

- لكني لست جائعاً أبو العز صدقني.

ضحك الآخر بقهقهته المميزة بين أصدقائه ضحك وهو يقول له:

- الله عليك ماذا كان فطورك هذا الصباح؟

- هذا زمن الحصار فيا دنيا اشهدي..

لم يجب قط بل استمر يغذ السير مع (أبو العز) صامتاً، كانا يتجهان

مكتبة الفكر الجديد

نحو منطقة الصالحية القريبة من مديرية السينما والمسرح، حيث العشرات من الفنانين من مختلف المهن، أما هو فقد بدا جديداً على هذا العالم الذي جاءه مبكرا جداً من معهد الفنون الجميلة، كان يرفل بالأهمية والعناية في المعهد، وصاح أبو العز بطريقة مسرحية معروفة عنه:

– إلى ابن سمينة يا رجل ولا تتقاعس من أكل الزند.

تلك مسرة لم تتكرر على مدى أربع سنوات، و لم يحصل معه أن دعاه أحد من أصدقائه إلى هذا المطعم، الذي لا يجرؤ على دخوله إلا المتمكنين من الخواص، وهو يعلم حقيقة الأمر هذا جيداً، لذا كان يتذكر تلك المناسبه التي اعتبرها مغامرة من طرف أبو العز ولولا مس من جنون الفنان الذي ركب صاحبه لما دعاه إلى مطعم ابن سمينه، وكانت مسرته اليومية، حين يأتي المساء ويخبره أبو العز أنه يرغب بجلسة فانتازية، ويقول له أبو العز:

– أفضل مكان نسهر فيه نادي اتحاد الأدباء،

– المائده على حسابي.

– ولماذا نادي اتحاد الأدباء؟

– الأسعار من نوع: حار ومحسب ورخيص.

عادة، يحتفي بهذا النوع من الجلسات، التي تنتهي بمقام نهاوند أو مقام الصبا، كلها بصوت (أبو العز) وإلا لن يدفع حساب المائدة، عندها يضطرعبد الله للإصغاء ويتحمل كل تبعات المقامات، التي تكشف عن موهبة (أبو العز) في الغناء وخصوصاً فن المقامات، وغالباً ما يتبع ذلك محاضرة عن فن الإلقاء في المسرح واستخدام طبقات الصوت، وحين يلم به الضجر من جلسة (أبو العز) يتذكر حالاً بعض جلساته مع جاره في البياع هاشم دقله، في غرفته على السطح بين كتبه، وأخذته حسرة عميقة لما مرت به صورة مكتبته ولحظات الهدوء والعزلة المحببة لنفسه القلقة دائماً، حين

مكتبة الفكر الجديد

يطلب من أحد أفراد العائلة أن يأتي إليه بقدح الشاي، لينفرد وحده مع لحظة تفكير جادة في الذي سيفعله، بمشروعه الذي لم ينقطع التفكير به، وعاوده في تلك الساعة العصيبة التفكير مجدداً في مسرحية الصرة!! لكنهم لم يمهلوه، فقد دفعوه للكلام عن حقيقته وهل هو تاجر أم تراه فعلاً مجرد ممثل ثانوي ليس بيده شيئ مؤثر؟ وأنه أمضى ردحاً من الزمن يحلم بكتابة مسرحية، تترك في نفوس الجمهور اهتماماً بالغ الأثر والعنايه، بمستقبله كفنان لديه رسالة يؤديها بين الناس والفنانين المنافسين له.

كانت هذه بعض أفكاره التي يتحدث بها أمام الآخرين، ويحاول أن يوضح بعضها كلّما وجد (أو هكذا يعتقد) عدم فهم المصغين إليه متوفراً، والكثير منهم ينظر إلى هذه الأفكار بسخرية مقصود منها التقليل من أهميتها أو عدم ملاءمتها لروح العصر، وهو بدوره ينفجر على خلاف عادته بضحكة قوية ومن بين شفتيه تتساقط الكلمات: – ماذا قلت بربك أعد علينا، روح العصر، هل لك أن تشرح لرجل من أهالي حي التنك، معنى روح العصر، وهو بدوره سيقول لك: الناس هنا في حي التنك وكذلك في حي طارق وأحياء أخرى، لم يسمعوا بمعنى العصر نفسه ولا يدركون في أي عصر يعيشون يا سيدي!

هذا إذا كان الرجل الذي كلمته عن روح العصر ورد عليك بالكلام عن حي التنك وحي طارق، إذا كان متعلماً ويعرف بضع مفردات متناثرة، عبارة من هنا وأخرى من هناك، أما إذا كان الرجل جاهلاً بكل شيء سوف يعتقد أنك تسخر منه ومن معتقداته!!

وكان النقاش تتصاعد وتيرته، وغالباً ما تنتهي الجلسة بدعوة غداء يدفع أحدهم ثمنها، أما إذا انتهت بالاتفاق على مائدة – بلانجو – كما يطلق أبو العز على موائد من نوع يتوفر فيها المشروب المسكر، فالحالة هذه يتكفل الواحد ثمن مشروبه الخاص لتنتهي الجلسة في الأخير بمزيد من القبلات

مكتبة الفكر الجديد

وربما البكاء على ما فات من أيام خلت، بكاء على الطريقة العراقية، حيث كل شيء يذكرهم بالماضي المضاع، والغناء مصحوب بالآهات وكلمات تعارف عليها الجميع (يعبر على الطيبين – أو اصعد اصعد –) هذه الكلمات وغيرها غالباً ما تلازم المغني خصوصاً حين تمسك به شهوة الغناء ممزوجاً بالأنين والحنين، إلى الكثير من مجريات الأمور التي تتسم بطابع عام، هو أشبه بالبكاء على الأطلال والحبيب الغادر والأخ المعتقل أو الصديق المهاجر إلى بلاد الغرب، تلك بعض ما حملته روحه وهو بين أيدي خاطفيه، وقد وضعوه في جحر ضيق لا يمكن الخروج منه، ما لم يحالفه القدر في الهرب خلسة أو الفرار بروح المغامرة، كان المساء في بدايته، حين دخل عليه اثنان منهم، وقفا أمامه متأملان وجوده الغريب بينهم، وتبادلا النظرات، انحنى عليه أحدهم وشرع يفك وثاق يديه، ولما أصبحت يداه حرتين بدأ يفركهما جيداً، ثم سألهما، أن كان يمكنه أن يزيح قطعة القماش السوداء عن عينيه؟

– نحن هنا لنمنعك من رفع العصابة السوداء!!

كان الشخص الآخر قد ذهب وجلب له الماء ليشرب حتى ارتوى تماماً، وتمتم ثانية عن مصيره الذي بدا له غامضاً بين أيديهم ومن يكونون حتى يطمئن لهم وماذا يملك ليقدمه لهم؟ كانوا قد أجلسوه على مقعد خشبي، تلمسه بيديه حالما فكوا قيوده وأدرك أنهم أجلسوه على أردأ أنواع الكراسي، تلك المنتشرة في أكثر المقاهي الشعبية رداءة، من هذا عرف أن قيمته عندهم لا تساوي مقعداً لا يكلفهم أكثر من بضع دنانير، وقال له أحد الرجلين:

– باي شيء تثرثر يا رجل عيب تتكلم مثل النسوان!!

– أنا لا أثرثر، ولكن أسأل نفسي: لماذا أنا هنا، ما الذنب الذي اقترفته؟

– والآن تريد منا الجواب؟ أليس هذا هو المطلوب؟

مكتبة الفكر الجديد

– إذا كنتما تراعيان الحق في أمري.

قرفص أكبرهم أمام عبد الله وشعر أن ثمة أحداً قد اقترب منه، في جلسته على المقعد الشعبي كما أسماه سخرية مما وصلت إليه الأمور معه، سأل ثانية:

– ما المطلوب مني الآن؟ ذلك ما قاله للرجل المقرفص أمامه.

– المطلوب أن تخبرنا عن الشخص

– الذي يمكن أن يوفر مبلغ الفدية.

ثم انبرى الرجل الآخر:

– بمن نتصل بشأنك؟

– لا يوجد أحد لديه إمكانية تخليصي من ورطتي هذه.

كشف الجزء غير المستور من وجهه عن ابتسامه عريضة، وسمعه الرجل يتلفظ اسم (يا الله) ويحرك رأسه يميناً وشمالاً بصمت واضح، نهض الرجلان وغادرا المكان، وقبل أن يغلقا الباب خلفهما، خاطبه أحدهما بالقول:

– فكر بما قلناه لك حتى تعود إلى أهلك فوراً.

– لا يوجد أحد لديه الإمكانية لتخليصي من ورطتي

والغريب أنه لم يفكر في حديثهما معه بل فكر حالما تركاه بابنة اخته هند..

كان قد انتقد تلك اللحظة التي شكك بها وبنواياها تجاهه، وسأل نفسه: هل تعلم أني هنا منذ أكثر من سبع ساعات وأنا مختطف؟ وأني لم

مكتبة الفكر الجديد

ألتقِ رياضاً حتى الآن لكي أكلمه عن ضرورة زواجه منها، وإذا قرر عدم الإذعان لطلبها بالزواج، سوف تموت البنت من الغم والعذاب الذي ستتلقاه وحيدة ومعزل عن مواساة الآخرين لها حتى المقربين من ذويها وقال لنفسه: أي صدمة سوف تتلقاها هند حين تعلم أني حتى لم أكلف نفسي بالاتصال بها. والحقيقة كان الخاطفون قد استولوا على هاتفه النقال وبعض أوراقه الثبوتية، التي حيرتهم وجعلت أفكارهم تتضارب وتختلف فيما يخص التسرع بالاختطاف، رغم وجود من يرفض الاعتراف بكل هوية يحملها أصحابها لأن الكثير من الشباب والأشخاص الآخرين قد زيفوا هوياتهم وأوراقهم الثبوتية بحيث يصعب على الذين لا يعرفونهم التأكد من حقيقة حامل الهوية تلك.

وقال متحسراً على ما فات من أيام و لم يستطع أن يفعل لنفسه شيئاً مهمّاً مثلما فعل صديقه المترجم الصامت، قبل أن يهجر البلد ويهرب بجلده، والغريب أنه لما قرر المغادرة والرحيل إلى بلد أوربي، لم يفكر ولو لمرة واحدة أن يصطحب معه، أي واحد من أفراد عائلته أبداً، وقال بصوت واثق مما يقوله:

– إنهم سيعتادون على غيابي.

وفعلاً ذهب صديقه إلى خارج البلاد تاركاً العائلة يحيط بها الخطر وقال كيف ومتى جئت في ذهن صديقي المترجم بحيث جاء اتصاله بالخاطفين؟ أي سوء طالع دفعه للاتصال في تلك الساعة بهم وهو يتصور ساكون المتكلم معه وليس شخصاً غريباً؟! وضحك في عبه من تسمية المترجم الصامت! وقال أنا الذي أطلقت عليه هذه التسمية، وعلى المترجم أن يترجم ولكن ماذا يترجم إذا كان صامتاً؟

كان أول من استقبله من زملائه الآخرين هو أبو العز، أخذه بالاحضان، وشده إليه بعنف وقوة، وفم الأخير يصرخ به: – أين كنت؟ لقد قيل أنك

مكتبة الفكر الجديد

اختطفت هل هذا صحيح يا رجل؟ وبعدها التم حوله عدد كبير من الممثلين والممثلات والفنانين والمصورين، والسؤال الذي تردد على سمعه هو واحد لكنه من عشرين فرع:

– هل تعرف خاطفيك؟ ألم تشك بأحد منهم؟ ألا تتذكر أنك تعرفت على أحد الأصوات خلال استجوابهم لك؟ المكان ألا تعرف أين يمكن أن يكون؟ تكلم يارجل؟! أتراهم هددوك بالقصاص إذا تكلمت، أم أنك عاهدت نفسك على الصمت؟

كان رده غير متوقع أبداً:

– سأختنق أريد قليلاً من الهواء أرجوكم!

انفض عنه رهط كبير منهم و لم يبق إلا المقربون الذين يعرفهم، وذهب أبو العز وجلب له زجاجة من البيبسي كولا، وضعها أمامه وأشار عليه:

– اشرب!

أخذها بيده وتأملها لبعض الوقت ثم سكبها بدفعتين، بعدها تنفس الصعداء، التفت إلى (أبو العز) وتبادل وإياه النظرات، ابتسم أحدهما للآخر، قال له أبو العز:

– تكلم يا عبد الله ماذا يخطر في رأسك الآن وماذا تريد؟

ابتسم عبد الله:

– صراحة أبو العز، أريد أن اشرب وأسكر حتى الثمالة!

معظم الممثلين والفنانين يعرفون الضحكة المدوية لـ(أبو العز)، كان قد تفجر بها حال سماعه العبارة الأخيرة.

– حسناً هيا بنا على طريقة جدنا طيب الذكر (امرؤ القيس) حين صاح صيحته الشهيرة: اليوم خمر وغداً أمر..

مكتبة الفكر الجديد

– والآن هيا بنا إلى أميرتنا نحتسيها عن بكرة أبيها.

نهض أبو العز ومعه عبد الله وزميلهم البصري وممثل كهل يكبرهم بسنوات يدعى غازي قال لهم:

– خذوني معكم إذا كنتم تعرفون باراً مناسباً أريد أن أعيد شبابي معكم فأنا لا أتناولها إلا في المناسبات الوطنية كما يقال عادة.

وضج الثلاثة بالضحك، قال له أبو العز:

– تفضل معنا ما تتناوله من بلانجو سأدفعه من جيبي، هيا.

قال الرجل الكهل:

– أبداً لست في عوز للنقود إنما بحاجة إلى الصحبة الطيبة، وأنتم خير صحبة لي فأعماركم تشجعني على طلب الرفقة معكم..

نهضوا كلهم وتوجهوا باتجاه الباب الشرقي، وقال البصري أعرف باراً يرتاده عدد من الفنانين قبل نهاية شارع السعدون، أظن اسمه السعادة أو الموعد لا أتذكر الاسم ولكن أعرف أين يقع.

حين دفعوا الباب الخشبي الكبير ودخلوا البار، استقبلتهم رائحه حادة صاعقة ومدوخة وصاح الكهل: يا للرائحه الصديقة! اتجهوا إلى مائدة قريبة من الزجاج المطل على الطريق حيث حركة المرور والسابلة والسيارات المارقة وعدد غير قليل من الباعة المتجولين، باعة الصحف اليومية والمرطبات المحمولة في علب بلاستيكية كبيرة الحجم، كذلك صباغو الأحذية الجوالون بين البارات والمقاهي، وقال الكهل: المائدة بجانب الزجاج الكبير مغامرة، لأي احتمال..

قال عبد الله بسخرية واضحة: لا مغامرة ولا هم يخطفون!

وضحك أبو العز من أعماقه: لم نتوقع الذي حصل معك!

مكتبة الفكر الجديد

قال البصري: هذا خير تحذير لنا جميعاً، علينا الانتباه للذي يدور من حولنا أو يجب عدم الاطمئنان لأي أحد يلتقينا في الطريق.

تلك الأثناء جاء النادل وطلبوا جميعهم، علب البيرة المثلجة.

ابتسم العامل لطلبهم، لكنه ركز نظرته على البصري وأبو العز وأهمل الكهل وعبد الله و لم يعط للآخرين اهتماماً بقدر انشغاله بالأولين، ثم ما لبث أن ابتسم لهما ابتسامة عريضة وقال بصوت مسموع:

– أنتما الممثلان اللذان عرضت لكما إحدى القنوات الفضائية تمثيلية طويلة، عن الإرهاب واللصوص والفساد المالي

تعجب أبو العز مما سمعه من عامل البار وصاح به:

– أنت واهم لم نكن نحن.

أدرك العامل غلطته، لقد أصبح معروفا لأهل الفن أنهم مستهدفون، من قبل الجماعات المتطرفة على اعتبار أن الفن يشيع الفساد بين العباد، تراجع في الحال واستدرك: آه لقد تصورتكما، أرجو مسامحتي عمي.

قال الكهل: هذا فأل غير حسن أقترح أن نغير البار.

– لا توجد بارات كثيرة في بغداد الآن

قال البصري محتدماً:

– اتق الله يارجل هل تشك بهذا العامل المسكين؟

– الحذر ضروري يا صديقي الكريم..

– مع هذا ليس صحيحاً أن نجعل الشك يفسد حياتنا..

وضعت علب البيرة المثلجة، وتناولتها الأيدي بترحاب وعناية فائقة، خشية على السائل الذهبي أن يفيض من حافة القدح إذا ما فتحت القنينة

مكتبة الفكر الجديد

على عجالة، الجميع رفع نخب سلامة السيد عبد الله دون الإعلان عن السبب وهو بدوره وبعد أن أخذ جرعة كبيرة من قدحه، أطلق حسرة وأدار عينيه في وجوه الجالسين من حوله، ولما شعر بردة فعل ممتعة في جسده، أعاد رشفته الأخرى وكان قد أنهى بقية القدح الممتلئ حتى الحافة،

– لقد أجهزت على قدحي مثلما يفعل رجل المافيا بطريدته.

وسأل الكهل:

– هل أصبحت لدينا مافيات كما صورت لنا السينما الإيطالية عن مدن ابتليت بالمافيات مثل ميلانو الإيطالية..

لكن أياً منهم لم يجب على سؤاله، عندها لاذ بالصمت، أحس عبد الله بعينيه توشكان أن تدمعا من ارتياح أحاط به..

وقال أبو العز يخاطبه: الآن يحق لنا نحن أصدقاؤك أن نسألك عن مسرحيتك التي انتظرناها قبل الحادث المؤسف والمؤلم أيضاً، ما كان عنوانها؟

– الصرّة، وهي عن حادث تفجير عبوة ناسفة في سوق البياع.

– طيب، ألا تعتقد ثمة علاقة بين مشروع المسرحية وبين اختطافك، من قبل إحدى العصابات؟

– ما جرى في سوق البياع حدث قبل ثلاثة أشهر، ولم أتحدث بموضوع المسرحية إلا لعدد محدود من معارفي وهم يعدون على أصابع اليد الواحدة، هل تعتقد أن ثمة من أفشى بموضوعها؟

– جائز جداً.

مكتبة الفكر الجديد

– لكنهم لم يأتوا على ذكرها معي خلال ساعات اختطافي..

– ليس شرطاً أن يتحدث الجاني عن مصدر قلقه مباشرة!!

اندهش الجالسون حول المائدة من العبارة الأخيرة للكهل، وقال البصري: يبدو أن الأخ درس علم النفس على انفراد؟!

– أنا خريج مدرسة الحياة كما يعرف أبو العز.

وعلت وجه البصري ابتسامة كبيرة بعد عبارة الكهل، تلك الأثناء أشار عبد الله على عامل البار أن يجلب المزيد من المشروب، وهذا ما فعله العامل الذي نفذ الطلب في الحال، لكنه لم يكف عن النظر إلى مائدتهم منذ بداية الجلسة، استمتع عبد الله بقدح جديد من مشروبه المفضل، ووضع يده على ذراع أبو العز، التفت إليه بمودة بالغة، وفعل مثلما فعل عبد الله أدرك أبو العز أن صاحبه، بدأ البلانجو يهز أركان وعيه، وزع أبو العز ابتسامة عريضة إلا أن الآخر اعتصره ألم شديد، أدار نظراته بينهم ثم انهار صبره دفعة واحدة ببكاء أثار انتباه الحضور في بار صغير نسبياً في شارع السعدون، ما الذي أبكاه بعد تناوله القنينة الثالثة، اقترح الكهل ألا يشرب السيد عبد الله علبة رابعة، لكن أحداً لم يصغ إليه، عندئذ انتبه البصري إلى نوع من الهمس يحدث بين عمال البار وبين بعض الموائد القريبة من مائدتهم..

قال البصري هامساً: ليكف عبد الله عن النحيب، أرجوكم انتبهوا إلى الموائد من حولنا واضح أن البعض من الحضور عرفنا، وعرف أننا فنانون..

غير أن عبد الله اندفع بعويل أقرب إلى الصراخ، وبالتأكيد توجه ببكائه إلى (أبو العز):

– لقد أهانوني وحطموني أنا الآن أشعر بالعار لأني لم أحسن الدفاع

مكتبة الفكر الجديد

عن كرامتي المهدورة.

– طيب ماذا نستطيع أن نفعل لك يا عزيزي؟

– لا لا أريد منكم شيئا سامحوني فقط. لقد كانوا قساةً معي حبيبي أبو العز!!

– اهدأ عزيزي عبد الله أرجوك اهدأ قليلاً، الحضور ينظرون إلينا!

كان قد هدأ قليلاً واستكان لأفكاره، وضغط على ذراعه بقوة، حرك الآخر رأسه ببطء وترو المقصود منه أن يقنع جماعته أنه يهدأ الآن، لكي يسمحوا له بتناول قنينه أخرى، ومنعه البصري محتجاً أنه ما عاد قادراً على الاستمرار بتناول الخمرة أبداً. واتفق معه الكهل، في أن ما قاله البصري هو عين الحق وأننا جئنا للمتعة وليس للجنون أو النواح، لكن أبو العز رفض منعه من الاستمرار بالشرب، لأن ذلك يزيد من إحساسه بعقدة الاضطهاد، استمع السيد عبد الله إلى ما قيل بحقه ومنعه من تناول علب البيره الباردة، تلك اللحظة علقت على ثغره ابتسامة ساخرة من الجميع، وقال هل أنا مجنون حتى أسكر أمام الناس الغرباء؟ ونظروا إليه غير مقتنعين، وهو يسحب كرسيه إلى الوراء لكي ينهض واقفاً على قدميه، وقال لهم تلك العبارة التي لا يعرف أحد من أين أتت إلى موائد السمار في بغداد، اهتز جذعه قليلاً ثم قال:

– زي الناس..

أدركوا أنه يريد بعبارته الذهاب إلى المرافق الصحية، تركوه يعيد توازنه، لكنه تراجع إلى الوراء كثيراً، اهتز وحين جرب أن يخطو خطوتين إلى أمام، تعثر وسقط إلى الأرض، تهالك قبل أن ترتطم قدمه بأحد الكراسي القريب منه، سقط على قفاه ثم لما حاول النهوض انكفأ على وجهه أمسك به أبو العز حالاً، أعانه على تدارك السقوط المروع، ولكن دون جدوى فقد اتسخت

مكتبة الفكر الجديد

ثيابه وباطن يديه، اعتذر مما جرى له، لكن الكهل انسحب وحده، ترك المائدة بعد أن ذهب إلى عامل البار ودفع ما عليه من حساب يخص مشروبه، انتبه السيد عبد الله إلى هروب الكهل، أدرك أنه هو السبب في تهديم أركان الجلسه، استولى عليه خجل شديد وراح يشتم خاطفيه، وبدل الذهاب زي الناس كما طلب في البدايه، راح يعتذر من الجالسين في البار كلهم، ولما كان يدير رأسه بين الموائد انتبه إلى وجود رجلين يتناولان البيرة، ركز نظرته عليهما كانا يرتديان الزي الريفي، اليشماغ والعقال، اقترب منهما، استدار إلى (أبو العز) وصاح به:

– تعال إلى هنا، لقد عرفتهما إنهما من الخاطفين وهما يتبعانني، هؤلاء خطفوني صدقوني، تقدم إليه عاملان من عمال البار وجاءه البصري وأبو العز ليأخذاه ويبعداه عن الرجلين، لكنه اشتد بالصراخ أكثر: حين أدرك أن لا أحد يصدق ما يقول ويقسم على صحته أمامهم، وقال بصوت واهن: أبو العز لا تدع المجرمين يهربان من القبض عليهما، غير أن ما أدهش الرواد في البار، هو عدم استجابة الرجلين الريفيين إلى صراخ السيد عبد الله واتهامه لهما وقالا بالحرف الواحد، أنه واهم وسكران ولا يعرف ماذا يقول، وعلى صاحب البار أن يرميه إلى الخارج فوراً..

والغريب أنه لم يهتم بما قالاه الريفيان و لم يعلّق على دعوتهما لطرده، بل انحنى على أبو العز وقبّل رأسه وتهالك بين يديه، وهو لا يكف عن البكاء بصورة راحت وتيرتها تتصاعد، ولأكثر من مرة اختنق بعبراته وسالت دموعه من عينيه بحرقة جعلت العديد من الجالسين في البار يتعاطفون معه وبعضهم ندت منه كلمة تعاطف سريعة وآخرون عرضوا المساعده بشكليها المادي والمعنوي، لكن البصري وأبو العز اعتذرا من الآخرين بحرارة بالغة، ولما أرادا دفع الحساب ليخرجوا جاءهم الرد أن حسابهم قد دفع من الرجلين الريفيين، مما أثار عجب الحضور ومن بينهم أبو العز

مكتبة الفكر الجديد

والسيد عبد الله يسند جسده إلى البصري من جهه وإلى أبو العز من جهة ثانية وفي سيره الوئيد كان يترنح بينهما، حتى توقفا عند الساحة استأذن البصري بالذهاب إلى بيته وشكرهما على هذه الجلسه التي لا تنسى أبداً..

بقي معه أبو العز الذي لم يتركه أبداً أسند جذعه بقوة لئلا يقع إلى الأرض ثانية، وسأله: أتريد الذهاب إلى بيتك يا عبد الله؟

-- أبداً لا أريد لأنهم سيتابعون خطواتي وليس بعيداً أنهم يترصدونني الآن!!

– لن يتبعك أحد وسوف تنام الليلة عندي في البيت..

– أنت صديقي الوفي أبو العز لا تتركني وحيداً أبداً.

وأردف ثانية يقول بصوت غلب عليه الضجر مما عاناه، خلال الأيام التي مرت عليه وهو يعاني استلاباً وقهراً لا يحتملهما بعير.

– لن يدعوني وشأني سينهشون لحمي كالكلاب حالما يقبضون عليّ مرة أخرى.

– أبداً أبداً لن يقبضوا عليك بعد الآن ولا يوجد من يتبعك، صدقني.

– أبو العز أنت لم تصدق أني كنت مختطفاً؟ أليس كذلك؟

– بالعكس أصدق كل ما تقول.

– كلا لم تعقل مسألة اختطافي وكذلك هروبي من الخاطفين!

أشار أبو العز إلى سيارة تاكسي جاءت تتهادى من بعيد، وقبل أن يشير على السائق بفتح الباب، همس عبد الله: انتبه إلى السائق ومن يكون؟ لم يعر له أبو العز انتباهاً بل دفعه برفق إلى داخل السيارة ليستقر وحده في الحوض الأخير، بينما اتخذ أبو العز مكانه إلى جانب السائق الذي تبين أنه لم يتجاوز الأربعين من العمر..

مكتبة الفكر الجديد

– إلى منطقة البلديات بالقرب من كازينو العصفور.

– إلى العصفور آخذ عشرة آلاف دينار.

– المبلغ كبير وكل مرة آخذ التاكسي بخمسة آلاف.

– ولكن ليس مثل هذه الحالة أليس كذلك؟ استدار إليه ليصبحا وجهاً لوجه

– ماذا بها هذه الحالة؟

كان وجه أبو العز مربداً وعيناه الواسعتان طفر منهما شرر ينم عن غضب مستطير، و لم يتراجع السائق عن ما قاله، تعاظم غضب أبو العز على الآخر، قال أبو العز: انتبه إلى سياقتك أفضل من النصائح.

– أنا أستطيع أن أسوق وعيناي مغمظتين.

– هذا عندما تكون وحدك هل تفهم؟

– نعم أفهم ولكن الذي لا أفهمه أنت فنان ممتاز كيف تسمح لنفسك أن تجعل المعجبين بك يستاؤون منك وأنت بطل المسلسل؟

ضحك أبو العز وربت على ذراع السائق، ولما التفت إلى الوراء وجد السيد عبد الله يغط في نوم عميق..

– اسمعني جيدا يا أخي عبد الله، ستبقى هنا معنا في البيت، أنت تعلم، لا يسكن معي سوى أمي وأبي الذي أصبح ضريراً، بعد القصف على بغداد والذي حصل قبل 2003/4/9 وهو الآن لا يأخذ ولا يعطي كما أنك لست غريباً عليه وسوف يستقبلك بخاطر طيب، أما أمي، ربما تتذكر ما كانت تقوله لك كلّما زرتنا هنا في البلديات، أتذكر قولها لك حالما تلتقيك؟

– نعم أتذكر ما تقوله وما تناديني به من عبارات! أنت ابني الثاني،

مكتبة الفكر الجديد

عبد الله لا تخجل منا ولا تتردد في المجيء إلينا في أي وقت، والشخص الآخر هو شقيقتي رقية وهي سعيدة بوظيفتها التي حصلت عليها بعد كفاح طويل، هذه الكتيبة التي ستعيش بين ظهرانيها إضافة إلى أخيك (أبو العز)، سوف أطلب لك إجازة لمدة أسبوع قابلة للتمديد أسبوعاً آخر إذا طاب لك المقام معنا، تكون فيه ضيفي المرحب به دائماً وفي كل ساعة، ولا أعتقد أن خاطفيك لديهم الاستعداد لمتابعتك كل هذا الوقت، حتى في البلديات أعتقد أن التفكير بأنهم سوف يتابعونك بعد مضي أسبوع على اختفائك أمر لا يصدقه عاقل، أليس كذلك؟

– طيب ولكن من أجل ماذا كل هذا الجهد والتعب للعائلة؟

– ألا تعلم لماذا؟

– أتمنى أن أعرف؟ هل من أجل سلامتي وحفظها من أي مكروه قد يسببه الخاطفون؟

– أتريد أن تعرف فقط، لماذا كل هذا الاهتمام؟

..... !

– طيب، من أجل أن تكتب مسرحيتك الجديدة، ونحافظ على حياتك أيضاً. أتفكر بغير هذا؟

– كلا، أتقصد أن أكتب مسرحية الصرّة؟

– يا أخي دوختني بالصرة، كلّما تكلمت معك عن المسرحية تتحدث عن أم عباس والصرة! ألا توجد موضوعات في رأسك العبقري غير فكرة الصرة التي أخذتها أم عباس من الولد الإرهابي، وانفجرت بعد فترة من الزمن في سوق البياع، أليست هذه الفكرة التي ما تنفك تتكلم عنها في كل مناسبة وبدون مناسبة!!

مكتبة الفكر الجديد

– وهل تفجير سوق كبير في حي شعبي أمر بسيط وهين؟

– أنا لم أقل هينا عليّ موت إنسان، لم أستهن بموت البشر أبداً. ولكن ينبغي للمسرح أن يتناول موضوعات جديدة ومختلفة وأيضاً من حياة الناس..

كانا قد أحاطا صينية العشاء في بيت أبو العز، فوق في غرفة الأخير، جلبتها لهما أخته رقية، وكان أبو العز مهذباً معها إلى الحد الذي استغربت منه هذه المبالغة في الاهتمام بها، وقد كان طيباً معها في الغالب من الأحيان، ولكن هذه المرة بدت حالته معها غريبة حقاً، وسألها عن حالها في العمل وعن صحتها، حتى شعرت أنه ما زال مخموراً وهي تدري كم تؤثر به حالات السكر، أو حين يصل إلى درجة يكون فيها ثملاً، فإنه يصبح عاطفياً جداً وكان حين يأتي إلى الدار ويجد أباه الضرير يقظاً فإنه ينكفئ على يدي والده ويجهش بالبكاء، وغالباً ما يكون بكاءَ، أو بكاء يشبه النحيب، عندئذ تأتي الأم وتمسك أبو العز من إحدى ذراعيه وترفعه، بما لها من قوة باقية، وكثيراً ما يصرخ عبارته الأثيره: – ضاع، ضاع العراق بين اللصوص والقتلة والإرهاب الدولي، وكانت الأم تنفجر بضحكة قوية حالما تسمعه يتلفظ عبارات من نوع – الإرهاب الدولي، وسقوط الديمقراطية المنتظرة..

وحين انسحبت رقية من الغرفة إلى صحن الدار في الأسفل، تاركة شقيقها أبو العز وصاحبه القديم عبد الله يتناولان عشاءهما معاً

قال عبد الله بعد صمت طويل، بسبب حديث أبو العز مع رقية:

– أتعلم أن أم عباس فقدت ولدها الوحيد، كثير من الناس يؤكدون على أنه اقتيد إلى جهة مجهولة من سيطرة وهمية، نصبها إرهابيون، مدججون بالسلاح، وفتشوا الكثير من السيارات القادمة من البياع والدورة والمعالف وحي الاعلام، وأخذوا عدداً من الناس بعدما أنزلوهم

مكتبة الفكر الجديد

من السيارات العمومية والخاصة وكان عباس من بين الركاب الذين تم اختطافهم في ذلك اليوم.

– حسناً وأين كانت الحكومة من هذه السيطرات الإرهابية؟ أتراها تغط في سبات عميق؟ ومتى تستفيق من غفلتها أم تراها متواطئة مع هذه المافيات اللعينة؟

– لست أدري، ولكن موضوعة أم عباس ليست بالقضية الهينة؟

– يا أخي اكتب ما تشاء من موضوعات، المهم أن تنفض عنك ركام الكسل.

– أنا شخصياً أرشحك لأبرز أدوار المسرحية المنتظرة، إن شاء الله، ولا تقبل إلا بدور رئيسي بل ينبغي أن يحفظه الجمهور وينادیك به كل من يلتقيك على ناصية الطريق!

– آه ما أجمل عبارة ناصية الطريق هذه إنها تشبه عبارة: لافض فوك، وعبارة ....

وقبل أن يدفع إلى فمه لقمة طعام كبيرة، قال معترضاً، على صاحبه:

– أرجوك أبو العز هل تسخر من كلامي؟

– وهل أجرؤ على السخرية من بطل استطاع أن يسخر من خاطفيه ويتمكن من الإفلات من قبضتهم!!

– الفضل في هذا يعود إلى فتاة اسمها فاطمة لا أعلم ما مصيرها الآن؟

– من هي فاطمة يا عبد الله؟ لماذا لم تحدثني عنها من قبل؟

اعتدل عبد الله في جلسته مكتفياً بما تناوله من وجبة الطعام:

– أنا لا أعرفها بالتمام ربما هي تعرفني وربما عطفت عليّ لأنها تعرف جبروت الخاطفين واستعدادهم لتصفيتي جسديًا إذا لم يحصلوا على ثمن

مكتبة الفكر الجديد

الفدية التي قرروها بأنفسهم!

– وهي أتراها ابنتهم؟ أم مربية أم مجرد فتاة عابرة؟

– كيف تكون عابرة وتجرؤ على إطلاق سراحي من الأسر؟

– إذن هي ابنتهم أو زوجة أحد خاطفيك تورطت بفك قيودك؟

– لتكن ما تكون هذا أمر ثانوي بالنسبة لي، المهم أريد معرفة مصيرها، ماذا حل بها بعد إطلاق سراحي من الموت المحتم آنذاك؟

وكان أبو العز يتبسم حالما يسمع عبارات يلقيها عبد الله على مسامع الناس أو في حضرة الأصدقاء، وقد أثارته عبارة الموت المحتم..

– اطمئن لو لم تجد نفسها قادرة على الخلاص من سطوتهم بعد قيامها على خلاصك، لما جازفت!

اعتدل في جلسته للمرة الثالثة خلال دقائق!

حرص أبو العز على تناول سجارة يسميها بالفاخرة بعد تناول وجبة العشاء وأعطى الثانية لعبدالله، وبصمت لم يتفقا عليه، كانا ينظران أحدهما إلى الآخر ويدخنان بمتعة:

– ومن أين لي معرفة ما تقوله أنت الآن؟

حسناً ألا تفكر جيداً بموضوع كهذا؟ مثلاً أن تبدأ مسرحيتك: بفقدان فاطمة مثلا؟! أو بالمطاردة الدراماتيكية التي حدثتنا عنها من قبل؟ أو ساعة اختطافك من قبل المسلحين؟ أو لحظة دخولنا إلى بار السعادة هذا اليوم!

فرك أبو العز يديه ونظر إلى باطنهما، كأنه سيكتشف أمراً مفاجئاً ظل يبحث عنه من زمن:

– البار أو الحانة يمكن أن تصبح بديلاً أو رمزا عن جماعة أو كتلة مضطهدة أو كيان يصارع قوى أكبر منه!

مكتبة الفكر الجديد

كان عبد الله قد تفجر بضحكة لأول مرة منذ دخوله بيت أبو العز:

– سيكون موضوعاً غريباً أو شخصياً، ربما لا يتقبله الجمهور!

– يا الهي هل تريدني أن أعلمك كيف تحول الموضوع الشخصي إلى حالة عامة؟ أنت اسطه في أمور الكتابة الدرامية؟

– إذن تقترح علي أن أباشر في الكتابة؟

وانشرحت أسارير عبد الله في الحال، وهو يسمع أبو العز يخاطبه

– من اليوم، اليوم وليس غداً.

– يا أخي أنت خير مشجع وأفضل مؤازر لي في عملي المسرحي!

– عبد الله نحن أخوة..

يتذكر عبد الله جيداً أول مرة التقيا فيها وأصبحا صديقين حميمين، في ساحة معهد الفنون بالقرب من تمثال فينوس وكان متكئاً على الذراع المكسورة لملكة الجمال والخصب والخير، (فينوس هي عشتار أيضاً)، شاهده يقف هناك وحيداً، لم يقترب منه بل استمر عبد الله ينظر إلى الآخر بعين كارهة له ‘وهو لا يدري لماذا نظر إليه تلك النظرة التي حملت معها من البغضاء والحقد ما يكفي المرء ان يقول أن خصومة سابقة قد سببت ذلك المقت الذي عبّرت عنه نظرة عبد الله لصاحبه (أبو العز)، و لم يدر أن صداقة نادرة سوف تنشأ بينهما، تصبح مثالاً بين طلبة المعهد، غير أن (أبو العز) لم تعجبه تلك النظرة التي أسماها بصراحته المعهودة بالعدائية وتقدم من عبد الله والشر يدفعه إليه بجنون:

–هل الأخ يعرفني من قبل؟

– أبداً ولا أظنك تعرفني؟

– إذن لماذا تحدق بي كأن ثمة خصومة بيننا من قبل؟

مكتبة الفكر الجديد

– كيف تريدني أن أنظر إلى الناس وهل توجد نظرة معينة؟

– على أية حال أنا اسمي أبو العز أمد يدي إليك لنكن أصدقاء، هل توافق؟

– كلا لا أبحث عن صداقات طارئة!

– حسناً أنا أعتذر لسوء فهمي لنظرتك.

بعد لحظات شعر عبد الله بندم شديد وراح يبحث عن الطالب الذي سيصبح أقرب الناس إليه والذي سيمضي في بيته قرابة سبعة أيام ضيفاً متخفيا عن عيون خاطفيه في منطقة البلديات. وليبدأ بمشروع مسرحيته المقبلة! ولكن ماذا سيسميها؟ هل يليق اسم الحانة مثلا؟ ولماذا الحانة وليس الحقيبة؟ أراد أن يغط في نوم عميق، لكن وجد ذلك قد تعذر عليه، وحاصرته عشرات الأفكار المتناقضة والمتضاربة التي منعته من النوم، وأول ما استولى على عقله ووجدانه وأفكار سود ظلت تحاصره، بل تطارده كلما وجد نفسه وحيداً:

أن فاطمة ذهبت ضحية أنانيته وحبه لنفسه في الخلاص من خاطفيه، وأنه يتحدى كل شجاعته بل رجولته، إذا استطاع أن يجزم بمسألة حياة أو موت فاطمة، التي بدت له أكثر منه صبراً في الملمات، ومن أعماق قلبه تساءل: ترى أين هي الآن؟ ومثلما فكر بأقرب الناس إليه، فكر أيضاً بالقدم التي داست على رأسه في سيارة الجمسي، وفكر أن أشخاصاً مثل أبو العز يعتبرون نماذج متقدمة على غيرها من الفنانين والممثلين أو أصحاب الشأن ممن يدّعون حمايتهم للفن في بلدهم، ها هو يقدم خدمة لا يمكن أن تعوض في دفعي إلى الكتابة، ولا شك سوف يحتل مكان الصدارة بين عشاق الفن المسرحي، عندما يعلم الجميع حجم التضحية التي قدمها من أجل تهيئة المناخ المناسب، لإنجاز المسرحية التي سيشترك في تمثيلها أفضل الممثلين ولما فكر أن عليه البقاء مع عائلة أبو العز، قرابة الأسبوع وربما أكثر،

مكتبة الفكر الجديد

وجد الأمر في غاية الصعوبة، وقرر مع نفسه أن يخبر (أبو العز) أنه سيعود إلى بيتهم في حي البياع، ولا يحتمل البقاء هنا في غرفة في الطابق الأعلى من بيت هو غريب عليه مهما كان عمق صداقتهما، ولا شك سوف تموت أمه من القلق والخوف عليه ولا يدري حتى الآن ما الذي جرى بين هند ورياض؟ وبقدر ما فكر بهؤلاء تذكر جلسات الود بينه وبين هاشم دقله جاره العزيز عليه، الذي كان يملأ جلستهما الكثير من الضحك والمسرات، والكلام الذي يشبه الطرفة المبيتة ولما مر عليه الشريط هذا كله، شعر بالألم يعاوده من جديد ويضيق عليه الخناق، وقال أننا لا نستطيع أن نقرر حتى مصائرنا ما دام البلد يحكمه، الكثير من الانتهازيين والمنتفعين من لاعبي السياسة، وقال من هنا ينبغي أن تبدأ المسرحية من نقد سياسة الاشخاص الجشعين ولصوص المال العام الذين لا يشبعون.

– المسرحية.. مالذي سيكون عنوان المسرحية؟ الصرّة.. الحقيبة..؟ المختطف!! ينبغي أن لا نشعر بالحيرة من موضوع المسرحية، لأن ما يعاني منه البلد من أحداث دراماتيكية، تدل على معاناة الناس فيه، ما يحدث كل يوم بل كل ساعة لن يعطي لكتّاب المسرح فرصة للاعتذار أو التقاعس عن الكتابة!! سيكتبون، ويكتبون المزيد من النصوص للمسرح وكذلك في القصة والرواية والشعر والرسم.. اكتبوا يا عباد الله المساكين، أيها الكتّاب المسرحيون أيها الجنود المجهولون الخائبون اليائسون من كل أمل قادم من دولة أو جمعية أو سلطان يرفل بنعيم لم يتوقعه في أي يوم من أيام حياته الخائبة أن يمنحكم أي هبة من هباته التي يوزعها، يميناً وشمالاً يمنحها لمن هب ودب وأغلبهم دون استحقاق يذكر، هيا اكتبوا أيها الكتّاب جميعكم خاسرون، ولكن ألا تعلموا، أن لكم الجنة ما دمتم تحملون هموم الناس على أكتافكم وفي قلوبكم، أنتم سادة الندى والمدى، أيها المفلسون وأنتم تجترّون أفكاركم ووعودكم لأنفسكم في أن تنتفضوا على واقعكم المنحرف المريض، وسيكون هذا اليوم هو يومكم الموعود وربما سيكون غداً أو بعد غد، لكنكم إلى أقرب بار أو حانة يتجمع فيها رهط من رفاقكم

مكتبة الفكر الجديد

تتهالكون، الويل لكم من ذواتكم، وأنتم تدخلون هذه الحانة، ما الذي يمكن للبصري أن يفعله أو أبو العز إذا ما العاصفة اجتاحت البلاد وجندلت العباد و إلى أين تمضي أيها الصعلوك المسكين؟ ((ونحن من منفى إلى منفى ومن باب إلى باب؟)) وقد ارتقى الممثلون خشبة المسرح بعد أن وضعوا كامل أصباغهم على الوجوه وارتدوا الثياب وغيّروا من هيأتهم بحيث يصعب على من لا يعرفهم من قبل أن يشخّص موهبتهم ويعرف من هم قبل ارتقاء الخشبة.. ومهما يكن فالأمر لا ينطلي على المؤلفين، الذين مارسوا لعبة الكتابة، أرى الآن كيف فتحت أبواب الحانة وكيف دخلها الممثلون!! وهم يهمون باندفاع نحو تناول المزيد من كؤوس النبيذ والجعة الباردة وهم في غاية سعادتهم، لأنهم أصبحوا جزءاً من اللعبة الكبرى للبلد.. خشبة المسرح لا تتعدى أن تكون صالة أو حانة متوسطة المساحة، مجموعة من المقاعد موزعة حول عدد من مناضد خشبية، احتل بعض الممثلين أماكنهم وبحكم الصلة أو نوع العلاقة بالمخرج أو المؤلف فإن أدوار الممثلين وزعت عليهم، واضح أني دخلت معهم وهذا أفضل لي وإلا سوف ينفرد بي الخاطفون حيث سيجدون الفرصة سانحة ولا يمكن أن تفوتهم، وأنا لست ساذجاً لكي أمنحهم هذه الفرصة، إنني أدع قدميّ لتأخذاني نحو العمق إلى الداخل، إلى حيث يتصدر أبو العز مكانة بارزة مع جمع من الأشخاص يصعب عليّ معرفة بعضهم أما البعض الآخر فهم أصدقائي بل ومعارفي، أرى بينهم الآن رجلاً كهلاً يقترب من صديقنا البصري، وعدد من المتسولين يدورون بين الموائد التي لم يعد من بينها مائدة خالية من الشاربين أو الرواد الذين تنطبق عليهم عبارة: من أهل الدار، لكثرة ما تواجدوا في الحانة، حتى ليعتقد المرء أنهم أصحابها أو أهلها، بحكم تقادم الزمن وتسارع خطاه، وهؤلاء بأيديهم الحل والربط كما يقال، وقد يظن المرء أن مصير الحانة مرتبط بعمالها وسقاة الشاربين الخمرة وهناك أشخاص لا يمكن التكهن بالساعة التي ينتفضون فيها للدفاع عن الحانة، عندئذ يتراجع صاحب الحانة ليفسح الطريق إلى أولئك الرجال

مكتبة الفكر الجديد

الصامتين، الذين يعرفون في أية لحظة يجب عليهم التحرك.. يشاهد عدداً من الأشخاص يتقاطرون على الحانة، بعضهم تعثر بامرأة متسولة واصطدم ببعض المقاعد المهملة المتروكة جانباً، والحق لم تكن الإضاءة جيدة والعديد من الداخلين، فوجئوا بالضوء الأصفر الشاحب يغطي المكان، ويزيد من عتمة زواياه وأركانه القصية، وتحركت المرأة المتسوله من مكانها وهي تحمل بيدها طاسة وبصوت يوحي بالعجز، تنادي: من مال الله يرحمكم الله.. وسمعت صوتاً من بين الموائد يرد عليها:

– ما دمت تطلبين من مال الله، فأنا لست مسؤولاً عنك.

لكن الصوت لم يكمل عبارته لأن أحدهم رد عليه:

– ما الذي يقصده الأخ بكلامه؟ أرجو أن يوضحه؟

لكن الصوتين اختفيا بين الموائد المتناثرة في زوايا الحانة وأركانها الأربعة، اختفى الصوتان المتنابزان أو المختلفان مع بعضيهما بسبب المتسولة، وحالما عم هدوء نسبي ارتفع صوت يقول بنبرة الهمس: –الحانة محاصرة.. هل يعقل هذا؟ وضحك رجل يلقي الكلام على عواهنه، ضحك ثم أصدر صوتاً مزعجاً من مؤخرته دون حياء، ولسانه لا يكف عن الهذو المسترسل، يلقيه على السكارى والمخمورين حد الثمالة، وكان صوته تتعالى نغماته:– ((أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إن من عاش مات ومن مات فات وكل ما آت آت.....)) عندئذ ضجت الحانة بضحك متواصل، غير أني فوجئت بالبصري يتبع (أبو العز)، كأنهما يبحثان عني فقد اندفعا باتجاهي، ووجهيهما يأكلهما الخوف وعدم الراحة أو كأنهما يعانيان أرقاً منذ بضع ليال مضت:– عليك أن تختفي حالاً، إنهم خاطفوك يحاصرون الحانة يتوزعون بين الباب و النوافذ، لقد أعلنوها واضحة جلية:

– أنت حصتهم ولن يتخلوا عن قرارهم...

مكتبة الفكر الجديد

أعاد البصري ما قاله أبو العز من جديد

– الأفضل أن تختفي عن العيون ولو إلى حين وهذا عين الصواب لأن لا أحد منا يستطيع مقاومة رجال يستميتون من أجل ما يعتقدونه حقهم الضائع..

كدت أبكي وأنا أسمع كيف تقترب مني نهايتي، ليس على أيدي جناة سبق لهم أن سحقوا كرامتي ومحقوها بكل دناءة، إنما حيلتي تكاد تهرب مني وتغيب بسبب الذعر الذي مملك كياني.. :– لنقاومهم؟!

أول من سخر من كلامي هذا صديقي البصري:

– أرجو أن لا تكون ثملاً وأنت تواجه أخطر لحظة في حياة المرء أعني أنت الآن أمام خيار واحد، حياة أو موت؟

قلت له: – أنا حتى لم أجلس إلى مائدة؟

– ليس هذا مهما، ليس مهما، الأجدر بنا حين نجد أنفسنا في مأزق، ينبغي ألا نورط اصدقاءنا معنا؟!

– لكني..... آه، أنت صديقي أبو العز ماذا تقترح علي؟

– أنا لا أدعوك للقيام بعمل ضد كرامتك، أنت لا تشك بإخلاصي لك؟ أليس كذلك؟ وقد أخفيتك في بيتي لسبعة أيام وتحملت كلاماً كثيراً لأني أخفي رجلاً غريباً في بيتي!! تصور أنت لا تدري ما يقوله الجيران عني وعنك وعن البيت الذي فيه رجل ضرير بسبب القصف الجنوني في ذلك اليوم العاصف حين فقد نظره ساعة وجوده داخل المصنع ومن الطريف كان المدير أول الهاربين، رجل ضرير وامرأة عجوز هي أمي وشقيقتي رقية، وعليك أن تتخيل ماذا يقول الناس في غيابي وأنت موجود في غرفتي تشرع بكتابة مسرحيتك المنتظرة والتي لم تكتبها حتى الآن، أليس كذلك؟ !!

مكتبة الفكر الجديد

لم أتمالك نفسي، صرخت به بصوت أشبه بالعويل:

– ماذا تقصد أيها الحقير بخطبتك الطويلة هذه؟

– أنا لا يهمني شيء سوى رقية!!

– وماذا جرى لها، تكلم أرجوك لا تدع الظنون تأكل قلبي؟

– سلامة قلبك يا صديقي العزيز

دفع البصري قدحه كله في فمه حتى آخر قطرة فيه، وجاء رجل يصيح: –الحذر من التهاون معهم، هؤلاء اللصوص القتلة، سراق المال العام، .. ورد عليه رجل آخر جاء من أقصى الحانة يسعى: تقصد العام والخاص، أرجوك لا تنس المال الخاص انظر بسبب سرقتهم المال الخاص، أنا الآن مواطن يشهر إفلاسه أمام الجميع.. وتهامس نفر قريب منا، إن الرجل أحد الجواسيس المعتمدين بنقل الأخبار إلى الحكومة..

التفت إلى (أبو العز): – أتسمع ما أشيع حول الرجل في لحظات، إذن كيف الحال وأنت وحدك في البيت مع عائلتي ولمدة أسبوع، وأنا لست موجوداً؟ أي إشاعة سوف ينتقي السفهاء لتدمير سمعتي؟

– ماذا تريد من قولك الأخير هذا؟ أرجوك أفصح عن الذي يدور في رأسك من هواجس؟

– ماذا يدور يا أخي؟ ماذا يدور برب الكعبة؟

فاجأنا البصري بالقول: حاولا أن تتفاهما معاً وبهدوء أفضل من تبادل الاتهامات..

– أي اتهامات يا أخي؟ إلى أي هدف ترمي؟

قال البصري بنوع من العناد المستتر: – أنا لا أرمي إلى شيء سيّء، – ولكني أرى أبو العز مجروح الخاطر..

– وهل أنا كنت السبب في ما تقول الآن؟

– بالطبع لا بد وأن يكون الرجل واحد منا قريباً منه!!

مكتبة الفكر الجديد

تلفتُ يميناً وشمالاً أيضاً، وزعتُ بينهما النظرات الحيرى، فلم أجد إلا متآمرين خبيثين يعملان باتفاق مسبق ضدي!!

صحت بهما:

– أيها الخائنان المتآمران، واضح أنكما هيأتما نفسيكما لكل احتمال؟

– أنت دائماً تتهم الآخرين بالتآمرعليك، واضح أنك تعطي لنفسك أهمية أمام الآخرين!!

– وهل تراني بحاجة إلى سلوك كهذا؟

–.....!!

وتعدانا في وقفتنا تلك، ثلاثة رجال أشداء، وتوجه أحدهم إلينا بالسؤال: من منكم اسمه عبد الله؟ القتلة يحاصرون المكان، طلباً لرجل بهذا الاسم يدعون أنه استلف منهم مبلغاً كبيراً، والآن حان وقت تسديد الدين؟!

وفجأة قال أبو العز: ليس بيننا من هو اسمه عبد الله!

حسناً لقد أصبح الأمر أكثر وضوحاً، إما المقاومة أو ندعهم يدخلون المكان، وأنتم تعرفون ماذا يحدث لو دخلوا عنوة أو برضانا، إنهم أسوأ خلق الله لا يحملون في قاموسهم كلمة تسامح.. لذا قررنا أن نقاومهم حتى يتراجعوا عن المكان وإلا سوف ننال الهوان على أيديهم الملطخة بالدم..

قال البصري: – ما هو المطلوب منا أيها الأخ؟

أجابه بهدوء: – لا شيء ربما سنحتاج إلى واحد منكم، ليحتل موقعاً عند إحدى النافذتين ليدافع عن بعض النسوة اللواتي تورطن بالدخول إلى المكان! سألته:

– لماذا تسمي الحانة بالمكان؟ أليست هي حانة؟

مكتبة الفكر الجديد

ابتسم ووضع يده الخشنة على ذراعي قائلاً:

– واضح أنك تهتم بالتسميات، أليست الحانة هي مكان يتجمع فيه الناس؟ ما الفرق بين التسميتين ما دام الغرض واضحاً في نهاية المطاف؟

– إذا كان الأمر بهذه البساطة التي وردت على لسانك، فالتسميات واحدة!!

– إذن قد نحتاج إليك أنت ما اسمك يا أخ؟

بادر أبو العز بالقول:

– اسمه أيوب

– آه، لقد أرادت أمي أن تسميني أيوب، لكن أبي رفض بحجة أني سأتحمل المزيد من الهموم والعذاب والتعب..

– إذن ما هو اسمك أنت أيها الأخ؟

– أنا اسمي عبد الله وانا أحب هذا الاسم كثيرا حتى أني جعلت هدية ثمينة لكل رجل اسمه عبد الله.

– أيوب يشبه عبد الله من حيث الهموم، حتى أني أتصورهما أخوه أو أصدقاء!! ألا ينتابك شعور من هذا النوع؟

– شعور تجاه ماذا؟ تجاه الاسمين! عبد الله وأيوب؟

تلك الأثناء مر رجل بوجه مستطير وقال إلى محدثي الذي اسمه عبد الله:

هيا لقد ازداد عدد المهاجمين، هيا بنا!!

يا خيل الله اركبي، هيا للدفاع عن وجودنا، الويل لهم..

اختفى الرجلان في الحال وعاد أبو العز يقول مفصحاً رأيه بالرجل

مكتبة الفكر الجديد

الآخر الذي اسمه يشبه اسمي:

– هذا رجل معتوه آخر أصادفه في هذه الحانة..

لكن أبو العز لم يكشف عن الرجل المعتوه الآخر الذي صادفه هنا، وحين سأله البصري عن المعتوه الآخر، قال: – ذلك الرجل الذي سخر من المرأه المتسولة، وكاد يخلق في الحانة معركة نحن في غنى عنها..

ولما أدرك أبو العز غضبي من كلامه السابق، تبادل معي النظرات كما شمل صديقنا البصري بها، وقال له:

– هيا لنأخذ عبد الله، أعني أيوب معنا إلى مائدتنا!

– إن بقيت لنا مائدة!!

تقدمنا أبو العز يتبعه البصري مبتسماً لي ولا أدري سر ابتسامته، ولكنني تكهنت أنها محاولة لنسيان الكلام القاسي الذي جرى بيني وبين أبو العز وللمرة الأولى، شعرت بالإهانة وسحق كرامتي بل وتخويني عندما أتى على ذكر شقيقته رقية، التي هي أصغر مني بسنوات وقد أوحى لي بعدم اطمئنانه حين ذكر تقولات الجيران، بخصوص وجودي عندهم في البيت، أيام اختفائي من المختطفين على أمل أن أكتب عندهم مسرحيتي المنتظرة...

غير أني لم اكن قادراً على النسيان، لأن ما تفوه به أبو العز كان من الصعوبة نسيانه بالبساطة المتوقعة، والتفت إلي حالما اتخذنا أماكننا على المائدة: ألا يبدو أن أشخاصاً غرباء جاءوا وعبثوا في محتويات المائدة؟ ولما وجدني لا أتجاوب مع اتهامه للغرباء، ترك الفرصة للبصري أن يتكلم نيابة عنه، إذ أدرك جوهر خطئه و لم يعد بقادر على تكرار الحالة حيث لات وقت ندامة:

مكتبة الفكر الجديد

– سنكون معك في السراء والضراء..

– .....!!

– نحن نتحدث من أجل سلامتك أرجو أن تصدقني..

ولما وجدني لا أستجيب لكلامه، مكتفياً بهزة رأسي، أشار على البصري أن يتكلم ليعينه على تفادي الخطأ الذي كبلني به دون ذنب أو حماقة ارتكبتها سوى أني تركت بيته فجأة ودون سابق إنذار، ولا أدري إن كان هذا هو الأمر الذي خضّ أركان علاقتنا أم ثمة شيء آخر لا أعرفه ويصر من جانبه على أن يخفيه عني مسبقاً في الاحتفاظ بأسراره التي ما عادت اسراراً منذ ساعة كشفها للآخرين، وفي لحظة تجلى فيها ذكاؤه، أشار إلى أن البصري، ما عاد صديقاً عادياً أو شخصاً عابراً في حياته.. لكني لم أستجب لمحاولات كسره للجمود الذي غلف روح علاقتنا، وأكاد أرى بالتمام ذلك الندم وهو ينهش في جدران قلبه وعقله..

وقلت مع نفسي لقد خرّب أبو العز إحدى أجمل الصداقات التي يبحث عنها البشر، بل لا يكفوا عن رعايتها لكي تدوم ردحاً طويلاً من الزمن، و لم يعد باستطاعة أحد أن يعيد لها مصلها أو نسغها الصاعد والنازل أبداً ما دام هو من تجرأ على ضربها بأول معول كان قريباً من يده.. ولست أدري إن كانت تلك خصيصة من خصائصه في ارتكاب الحماقات تجاه زملائه وأصدقائه ومحبيه، فقد روى لي عن علاقة بينه وبين أحمد العبادي في بدء شبابه نمت وتطورت في حي الفضل ببغداد، في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي وكيف التهمه ديناصور الندم على صداقة كان راعياً لها أكثر مما كان أحمد العبادي معنياً بها، وقد أشيعت ظلماً حول أبو العز إشاعة باطلة، في أنه وشى بأحد الشباب من أبناء المنطقة المتخلفين عن تأدية الخدمة العسكرية، أيام الحرب مع إيران، وأنه كان سبباً بإرسال ذلك الشاب إلى السجن ومن ثم انتهى مصير الشاب إلى المجهول، وتبين أن الشاب من أقرباء أحمد العبادي الذي قطع علاقته مع أبو العز في الحال

مكتبة الفكر الجديد

ومن يومها والأخير لا يكف، عن القسم بأغلظ الأيمان على براءته من الوشاية التي سجنت ذلك الشاب، وحتى لو كان القسم وصاحبه صادقين فالإشاعة ترسخت في ذاكرة الناس في تلك المنطقة، التي عاش فيها أبو العز فترة شبابه حتى إذا أكمل الأكاديمية في مطلع التسعينيات، هجر حي الفضل إلى منطقة البلديات مع أمه وأبيه وشقيقته رقية التي كانت خير معين للصديق المسرحي الطيب عبد الله، والذي تحول اسمه إلى أيوب بين لحظة وأخرى.

أتريد أن تخلق من المسرحية لعبة؟ أي أن تكون قد دخلت مع خصومك الألداء لعبة الحارس واللص أو كما تسمى عسكر وحرامية؟ تريد أن ترتدي طاقية الإخفاء؟ تراهم بينما هم يسمعونك ولا يرونك أتريد الانتقام منهم؟ ليس بالمواجهة والتحدي السافر إنما في الخفاء ومن الصعب اكتشاف إلى أي مدى أنت قريب منهم، تهزأ من شطارتهم المفترضة ومن شراسة مشروع الشر معك، وأنت لا حول لك ولا قوة تجاه إصرار خاطفيك ولو كانت لديك القوة الكافية لما قصّرت بل لما لجأت إلى بيت أبو العز، لتمضي فيه سبعة أيام أو أكثر تحاول التخطيط لكتابة مسرحية تدين فيها مصاصي دماء الفقراء من الناس وأن يكون لصاحبك (أبو العز) دور بارز إن لم يكن الدور الرئيسي، دور يمتد من أول المسرحية إلى آخرها، وهو لا يريد أن يصدق أن الأمر برمته ما عاد يحتمل التأجيل أو التسويف ولا حتى المماطلة..

– أنت أخي عملت ما توجبه أخوتنا من حقوق علينا، أليس كذلك؟

– أنا لا أفرض على أصدقائي إلا ما يتمكنون من تأديته تجاهي!!

– لكنك تنظر إلي كما لو أصبحت حانثاً بصداقتنا؟ !

– اطمئن أبو العز لن يتبدل قلبي عليك أبداً..

– وأنا كذلك عبد الله صدقني..

مكتبة الفكر الجديد

– طيب صدق أنا أصدقك!!

– قبلاتي لك صديقي..

– قبلاتي أيضاً..

هل تصدق فيض العواطف الهادرة في هذه القبلات التي تبدو للجميع، عواطف ملفقة ومختلقة، وقد جربت الكثير من الناس وهم على هذه الشاكلة ليس معك وحدك بل تلك سنّة اتخذوها، وديدن التزموه في أيام السلم وأيام القتال. حذار منهم كلهم وهم لا يخططون إلا للخلاص من الشر الذي جلبته معك منذ أسطورة اختطافك التي من الواضح أنهم لم يصدقوها حتى الآن، رغم كل ما جرى أمام أعينهم وبالوضوح نفسه الذي طرحته عليهم بما عرف عنك من صراحة تصل في العديد من الحالات إلى أنهم ينظرون اليك كالمجنون أو الأبله الذي يقول ما لا يعرف أو ما لا يقدر خطورة ما يقول!! وستبقى وحيداً أمامهم أو معهم وحتى بدونهم، واضح أنهم لن يفتقدوك.. وحين تملكتك حالة من يأس وكآبة بعد الاتهامات التي ساقها لك رفيق العمر أبو العز، أتذكر ماذا كان ردهما؟ ألم يقل لك البصري:

– نحن نعلم أسباب معاناتك.. وبقلب مدم حزناً على ما فات من أيام جميلة أمضيتها معهما

– ماذا تظنان حقيقة معاناتي الجنس؟ مثلا؟

– لقد اعترفت بنفسك ولا أتذكر من القائل من فمك أدينك؟

– أنت لا تتذكر أي شيء بل لا تعرف أي شيء!!

– ماذا يدور في رأسك يا أخي؟

– بخصوص أسباب معاناتي؟ واضح اتفاقكما على إدانتي ولكن

مكتبة الفكر الجديد

لماذا؟ لست أدري، ربما سببت لكما إزعاجاً أو شيئاً لا يمكن أن ينسى!!

– أنا لم يعد لدي ما أقوله لك أو لغيرك، ولا أستطيع اتهام أحد بأسباب معاناتي!!

عندئذ أدركت أنك ينبغي أن تواجه الأمور إذا تطلّب الأمر ذلك، ولكن قل لي بربك من يحدد المواجهة؟ ويعلن ساعة الصفر؟ أنت أم الخاطفون، وماذا عن الجفاء الذي اتخذه أبو العز تجاهك بحجة وعذر مقبول أو بدون ذلك؟

الخاطفون الذين تمكنوا من اقتفاء أثرك إلى الحانة!! هل أنت قادر على ردعهم؟ وما هي السبل للدفاع وبالقوة نفسها التي ستفاجأ بها من قبلهم، أنت لا تدري من يقف وراء تحركهم؟ هل تراهم يعتمدون على قوتهم الذاتية؟ أم يستمدون بعض العون من قوة أخرى، وهل هي قوة من خارج البلد؟ ولقد أشيع كلام كثير عن ارتباط العديد من الأحزاب والكتل والتجمعات الدينية و السياسية وحتى الأشخاص، بدول وقوى من خارج البلد، وأنت شهدت كيف حصلت مشادة شرسة بين شخصين من ذويك من ساكني المحافظات، وقد زارا العاصمة لعمل يخص ارتباطهما بكتلتين سياسيتين، لم يكونا على وئام وكثيراً ما كانت لهما معارك ضارية على مستوى تشخيص المرجعيات السياسية، واستمر تبادل الاتهامات بين الكتلتين على مدى سنوات، وقد اتهمت إحداهما الثانية بالارتباط بإحدى دول الجوار، أما الكتلة الأخرى فقد أشارت بصورة قاطعة إلى تورط الثانية بالتزامات مخلة بقواعد العمل الوطني، لرئيس تلك الكتلة باحدى الدول العربية، لم يفصح صاحب الاتهام من هي تلك الدولة وقد انتقلت الاتهامات إلى أرض الحياة اليومية، وراح الناس البسطاء يتنابزون بها، ترى بأي قوة خارجية يرتبط خاطفوك؟ وهل هم أقوياء شرسون، وهل حقاً تراهم قد جاءوا للبحث عنك؟ ولماذا لا يكون شخصا آخر

مكتبة الفكر الجديد

اسمه عبد الله هو المطلوب؟ هل تظن أنك الوحيد من يحمل اسم عبد الله؟ أين تكمن خطورة السؤال عن هوية خاطفيك؟ والناس الذين يتجمعون عند منافذ الحانة، هل هم خاطفوك أنفسهم؟ أم انك على طريقة المثل المعروف، يكاد المريب يقول خذوني؟ تصرفت مع الآخرين؟ وتلاعبت بمقدراتك الشخصية بحيث أصبحت أنت أيوب والآخر عبد الله؟

– أي اسم تريدنا نناديك به؟ كان هذا صوت صديقي البصري.

– الاسم الذي يليق بنا، إذا أردت أن تناديني أيوب من يمنعك؟

– وإذا ناديتك عبد الله؟ هل سترد عليّ كما كنت في السابق؟

– أنت توهم نفسك بأنك من الذكاء بحيث تنسيني موقفكما مني؟

– أي موقف تعني؟

– عودة الخاطفين للبحث عني!!

– وأنت أتجد نفسك على استعداد للمواجهة؟

كان ذلك سؤال أبو العز، والحقيقة كان سؤالاً مفاجئا لي.. وقلت لا مفر من لحظة الافتراق معهما عاجلاً أم آجلاً، وتأسفت أشد الأسف على ضياع السنين الطوال معهما، وقلت والحسرة تأكل فؤادي: لم يعد أمامي من وقت كاف لإقامة صداقات جديدة مع أناس جدد، نظرت إلى (أبو العز) كفاية و لم أنظر إلى الآخر إلا عبر زاوية العين حتى أنه اندهش لتلك النظرة التي انطوت على كثير من الحنق واتهامه بالتواطؤ ضد صداقة كان مقدر لها أن تدوم إلى نهاية الشوط، وبصوت مدغم الحروف خرجت نبراته:

– وداعاً..

–.....!!

مكتبة الفكر الجديد

استدرتُ في الحال و لم ألتفت إلى الوراء أبداً، لا أعلم ما دار بينهما، إذ لم يكن بالإمكان أفضل مما كان..

هما صديقاي ولا مفر من التفكير بهما بمعزل عن فشلي في التخلص من خصومي المعروفين بالعناد والمكابرة، وكان أبي قد حدثني عن هؤلاء الناس من قبل وبمحض المصادفة، إنهم قوم لا ينامون على ظلم أو ضيم وطغيان وأنهم من الشراسة والعناد بحيث تجدهم على استعداد للموت من أجل ألا يخدعهم أحد، وألا يكونوا في نظرهم هزأة وطرفة يلوكها الآخرون.. ترى هل جعلت منهم أضحوكة في نظر البعض من معارفهم لمّا تمكنت من الهرب من بين أيديهم؟

قالت لي فاطمة: هيا اهرب اندفع أرجوك، يقتلونني إذا عرفوا بصنيعتي معك..

– إذا ألقوا القبض علي ماذا افعل؟

– ساعتها الموت أهون عليك من الوقوع بين أيديهم لأنك سترى جهنم شاخصة أمام عينيك.. هيا اهرب، اجري بأسرع ما تستطيع!!

ساعتها تحولت قدماي إلى طلقة في الريح أو طائر أفلت من قفصه، نسر أو عقاب يندفع منطلقاً بجنون نحو الهدف، كان عليّ اجتياز أرض ترابية كي أصل المزارع المتصلة بالطريق العام، المزارع التي وحدها يمكن أن تخفيني عنهم، ركضت غير واع إلى ما حل بي من مصيبة أو كارثة أو بالأحرى لعنة نزلت على رأسي، ورغم هذا كله لم أستطع منع نفسي من التفكير المتواصل بفاطمة، ماذا تراهم سيفعلون بها؟ وماذا قالت لهم؟ ولكن لماذا أنا بالذات؟ ولماذا تنقذني فاطمة من الموت المحتم؟ أتراها تعرف مدى قسوتهم وعنادهم، واستعدادهم للقتل وتصفية الحساب مع أعدائهم؟

مكتبة الفكر الجديد

حين شاهدتُ الجمسي قلت أني صائر إلى الموت لا محال!! إلى أين يمكنني الهرب منهم؟ وهذه السيارة تحت إمرتهم جاهزة للانطلاق ورائي حيثما أولي الأدبار!! قلت هيهات أن أستسلم من يأس أو أتورط في أن أسلم قيادي لهم، أليس هذا نوعاً من خيانة العهد مع فاطمة؟ لقد عاهدتها على الخلاص من أسري، أن أنطلق بعيداً عن موتي المتربص بخطواتي..

ترى كم هو عدد الأيام بل الساعات التي لم أستطع فيها أن أمنع نفسي من التفكير بفاطمة؟ وكم من مرة تمنيت رؤيتها ولو للحظة واحدة نعم لحظة فقط، أن أتيقن من بقائها حية ترزق و لم يمسسها ضرر أو أذى؟ وكيف لي أن أتأكد من صحة الآمال التي لم ينقطع عقلي من الاسترسال في تقليب الأمور بشأن فاطمة، التي تعلق عقلي بها قبل قلبي وقد ناجيتها طويلاً مع نفسي: يا فاطمة الخير يا أم البساتين، وكدت أضحك بصخب من تورطي في التجاوز على مطلع قصيدة الجواهري (يا دجلة الخير يا أم البساتين) وهذا هو الصحيح.. وفي سري وعلني ناديتها: يا فاطمة، صحت بأسمها ألف مرة اردت رؤيتها ولقاءها واحتضانها، أن أشم عطرها، أردت لفرحتي بها أن تدوم، هذه الفرحة الغريبة وسيظل حلمي بها سديمياً وسأظل أناديها ما حييت، يا فاطمة!!

تلك الأثناء دوت طلقة حسبتها من الداخل لكن تبين أن أحدهم أطلقها من خارج الحانة، وقد قتلت رجلا قيل أن اسمه عبد الله، ولكن الناس داخل الحانة كانوا حائرين بشأن جثة الرجل الذي اسمه يشبه اسمي الأول، وتجمع حشد من الناس تبين فيهم رجل ثمل قبل الأوان وصاح ساخرا من الآخرين:

– أنا اسمي عبد الله، هل صحيح أنهم قتلوني؟

وتجاهلوا كلامه معتبرينه كلام سكارى لا يعون ما يقولون، في تلك اللحظة جاء رجل كهل ونظر إلى الرجل الطريح على الأرض، وحدق في

مكتبة الفكر الجديد

وجهه ملياً، ما لبث أن صاح:

– لقد قتلوا شقيقي الويل لهم ثكلتهم أمهاتهم؟

وتعاطف مع شقيق القتيل نفر من الرجال، وتنادوا فيما بينهم يا لثارات الغريب، هيا للقتال، غير أن طلقتين اثنتين انطلقتا عبر النافذة إلى داخل الحانة، جندلت الطلقتان رجلين آخرين، تراجع الكثير من الناس، وتفرق عدد منهم في زوايا الحانة، وقال شاب في الثلاثين من عمره: دعونا نجمع جثث القتلى عند بعضها، حتى نتدبر أمر إخراجها من هنا!!

– حذار من تفسخ الجثث..

– مازال لدينا وقت يكفي للدفن إذا كان هناك من يسمح لنا بدفنهم قريباً من المكان هذا!!

– إن المهاجمين يطالبون برأس رجل اسمه عبد الله استطاع أن يبدل اسمه إلى اسم آخر لا علاقة له بالاسم الأول!!..

– حسناً ليخرج لهم من اسمه عبد الله ربما يستطيع التوصل معهم إلى حل مناسب..

– كيف لنا أن نعرف أن هذا الرجل اسمه عبد الله؟

لندع أحد المهاجمين يدخل ويعرف من هو طريدته!!

– وكيف نسمح للغرباء أن يطأوا أرضنا، أرض الآباء الكرام والأجداد الأشاوس؟

– لا حل آخر لدينا نرجوكم تعاملوا مع الأمر بجدية تامة..

– بل ليتعاملوا معه بواقعية!!

– حذار من السماح لهم بدخول الحانة، صدقوني هذا هو الجنون بعينه..

مكتبة الفكر الجديد

قال آخر بإصرار واضح:- نعم هذا هو الجنون بعينه..

كنت أصغي وحدي لهذا الكلام الذي تدفق من أفواه الناس ولكن دون تدخل من جانبي لأني أعلم أن الغوغاء إذا ما سنحت لهم فرصة للبطش سوف يجندلونني في الحال.. والغريب أني لم أتكلم ولو بعبارة واحدة لكي أبعد التهمة عني إذا ما أحدهم اكتشف اسمي الحقيقي؟!

ولكن ما هو الاسم الذي يليق بي أو الذي سينفعني في السراء والضراء؟ ولست أدري كيف قفزت صورة فاطمة إلى رأسي الآن؟ وقلت-: آه فاطمة أين أنت لتنقذيني كما في المرة الأولى؟

كنت أسند جسدي إلى جدار الحانة لما لكزني شاب أحمر الشعر غريب الأطوار، قال لي والثقة تملأ صوته:

- خذ ارتوِ من كأسي هذا، لقد مضى عليك وقت طويل لم تأخذ فيه جرعة من كأسٍ لتروي عطشك، هيا خذ يا رجل!!

تناولت القدح من الشاب الذي حسبته يعاني مرضاً، أخذت الكاس ودفعته في فمي، جعلتني السرعة بالتناول أشعر بالتوهان والتراجع عن جديتي في مواجهة الأمور التي تنهال على رأسي كان لم يكن أحد سواي من المتواجدين في الحانة التي غدت مرتعاً للصوص والانتهازيين والوشاة..

لم يخطر ببالي (أبو العز) ولا البصري منذ افتراقي عنهما، والغريب، هما أيضاً لم يكلفا نفسيهما في البحث عني، ولما تذكرتهما الآن شعرت لأول مرة بالوحشة تجتاحني وتهز كياني، وفكرت من كان السبب في كل ما جرى ويجري لنا؟ لم يكن أمامي ثمة شخص بعينه لكي أصب كل غضبي عليه، وفكرت أيضاً أن السبب الخفي وراء هذه الفوضى هم الخاطفون، الذين أحالوا حياتي إلى جحيم لا يطاق.. الخاطفون والقتلة واللصوص،

مكتبة الفكر الجديد

وقلت لماذا هم وليس الحكومة بما تمتلكه من جهاز عريض طويل لحفظ سلامة المواطنين؟ وفكرت في أني أضيّع وقتي في أفكار لا جدوى منها، ألم أفكر كثيراً من قبل بالذي جرى أمام أنظار السادة المسؤولين في دائرة عملي ولم يكلف أي واحد منهم اللقاء بي لكي يصبح مطلعاً على قضيتي ولكن بلا فائدة تذكر!! وقلت لنفسي جاداً ينبغي ألا آتي على ذكر الحكومة فقد أصبح شتمها موضة يلجأ إليها البعض لتبرير أفعاله الخفية مع أنها تستحق منا كل نقد قد يكون نافعاً لكن الحكومة هي الحكومة في كل زمان ومكان، وليس من الضروري التعرض للقتلة، هؤلاء على أتم الاستعداد للضغط على الزناد في اللحظة والتو ليردونا قتلى على قارعة الطريق، ولن يرفع جثامينا أحد لأنهم سيشتركون هم في الجريمة المنسوبة لنا وقد يتعرضون للأذى على أيدي زناة مدربين على القتل بأجور مدفوعة مقدماً..

فوجئت برجل قصير القامة يتقدم نحوي وتمتد يده بكل جرأة ويمسك بي:

– أين كنت يا عبد الله هذه المدة؟

لا أدري كيف خلصت ذراعي من قبضته القوية الصلبة وكيف وقفت بوجهه وقد بدرت مني صيحة مباغتة:

– لست عبد الله ولا أعرفك من قبل، حتى أنت لا تعرف من أكون، هيا ابتعد عن طريقي!!

واضح أن الرجل القصير قد صعقته الصيحة ليس بسبب قوتها بل للثقة المطلقة التي قيلت بها، ثم ما لبث أن ابتسم أو أرغم نفسه على الابتسامة، استل من داخل ثيابه جريدة واضح أنها صدرت قبل أيام قليلة لأن ورقها كان جديداً أو ما زال يحتفظ بطراوته، أخرج الصحيفة وفتحها أمام ناظري، وقد برزت صورتي على جانب منها بجبهتي البارزة بعض الشيء وأنفي الدقيق الذي يشبه منقار طير وفمي بانحرافه عند زاوية الفم،

مكتبة الفكر الجديد

كذلك خصلة الشعر المتدليه على الجبين دائما:

– نعم، هذه صورتي وأنا لا أنكرها بالطبع!

– حسناً الآن تستطيع أن تأتي معي وأنت مطمئن!!

–إلى أين؟ وكيف حصلت على صورتي؟

– الناس مهتمة بقضيتك ومن أرسلني للبحث عنك أشخاص أكفاء يلوحون بعصا الواجب على كل متمرد، هيا معي يا رجل لا تتعبني معك!!

– ومن يريد رؤيتي الآن؟

– ستعرف حالما نصل..

– وإذا رفضت الذهاب معك.. ماذا يحصل؟

– كلا ستأتي، أنت رجل عاقل وتعرف النتيجة إذا تمردت على القانون!

لوحت ذراعي أمامه وقلت له:

– اذهب إلى من أرسلك بطلبي وقل له – يقول لك عبد الله: انتهى زمن الوفاق ولا عودة للمياه إلى مجاريها بعد اليوم.!!

ولست أدري كيف خرجت من فمي عبارة: – يقول لك عبد الله !!

تفرس الرجل القصير بوجهي كأنه يتأملني أو يفكر في الرد على كلامي، حرك رأسه حركتين سريعتين وقال لي بنبرة جزعة:

– أيها الأبله أتعتقد أني جئت أبحث عنك لأنك السيد المرتجى؟

– ماذا تريد مني إذن؟ كيف تسخر مني بكلام لا يليق بعاقل؟

– أنت حقاً كما قيل لي ينبغي التوجه اليك بالقوة!!

–هل تعي خطورة ما تقول أم أنك تشترك في مؤامرة ضدي؟

مكتبة الفكر الجديد

كانت عيناه الواسعتان تركزان على حركة فمي وكيف أتلفظ الحروف وسألته: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

قال لي: أنت تمتلك طريقة في إخراج الحروف تثير مستمعيك، هل تعرف هذا الأمر أم أنك شخص تمثل دور المسكين الوحيد في هذا العالم؟ ومع هذا اعلم أن عليك التزام الهدوء لتأتي معي الآن!!

– إلى أين تريدني أن أذهب معك وأنا لا أعرفك يا رجل؟

– لا يهم، إنما سأكون مضطراً لأخذك بالقوة إذا رفضت السير معي بصورة هادئة، حسب اتفاقي مع الناس المعنيين بالأمر!!

– لقد عرفت ثمة من يدبر مكيدة ضدي.

– ألا تعتقد أنك تكلمت أكثر مما يجب، والآن هيا بنا إلى حيث يطلب أشخاص معنيون بالأمر وقضية المثول أمامهم تهمهم جداً.. هيا..

قال كلمته الأخيرة بتصميم لا يتزعزع أبداً، أوحى لي من خلالها أن إصراره قاطع بشأنه، ولما أمسك بذراعي من جديد، دفعته بقوة إلى الخلف وقد بوغت بالقوة التي جعلته يتراجع إلى الوراء بعنف أربكه تماماً. فجأة قبض بيده على يدي اليمنى وأمسك ياقتي ودفعني أمامه بقوة المقصود منها تحذيري في أن الخطوة القادمة سوف تكون أكثر عنفاً.. صرخت به:

– اتركني أيها النذل قل لمن أرسلك أني سأقاتله حتى الموت!!

– لكن أنا موكل بأخذك إلى مركز الشرطة، حيث ينتظرك من أقام ضدك الشكوى القضائية!

– من تقصد بأصحاب الدعوة القضائية؟

– لا أعرفهم إنما أعرف رئيس الشرطة الذي أوكل إليّ مسألة القبض عليك، سواء بالترهيب أم بالترغيب!! عليك أن تختار الطريقة المناسبة

مكتبة الفكر الجديد

لك؟

– لن أذهب معك أيها الانتهازي الوصولي الجشع..

– لن تنفعك هذه الكلمات الجوفاء بعد الآن..

– ماذا ينفع إذن؟

– أنت مطلوب للحكومة حيث كثرت ضدك شكاوى قضائية تطالب بإلقاء القبض عليك..

– إذن أنت من رجال الأمن؟

– تستطيع أن تصفني ما شئت ولن يغير هذا من حقيقة الموضوع شيئاً.

– وإذا رفضت المجيء معك؟

– لن ترى خيراً بل ستنال ما لا يرضيك!

– هل يقف وراء هذه اللعبة القذرة صديقي أبو العز؟

– أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم، والذي أعرفه جيداً انك أحد النصابين الذين استلموا مبالغ جيدة كعمولة، على وساطة لسلع وبضائع يتم استيرادها من الخارج.. أليس كذلك؟

– من لفق هذا الادعاء المزيف ضدي وضد سمعتي وكرامتي؟

– أشخاص كثيرون يقفون وراء هذه الدعاوى القضائية.

– لم تخبرني عن اسمك.

– لا تشغل نفسك بأشياء غير نافعة!!

– تصورتك تحمل اسم عبد الله أيضاً؟!

ابتسم وبانت أسنانه القوية التي أكلت بريقها الأيام، اصطنع الجدية

مكتبة الفكر الجديد

على وجهه وأجبرني بالسير أمامه، ولما رفضت هجم على ذراعيّ ليطوقهما ويوثقهما بحبل رفيع كان يخفيه داخل ثيابه، لكنه فوجئ بصفعة تلقاها على وجهه جعلته يهتز وتنهار قواه و لم أعرف ما الذي حل به في اللحظة التي سددت إليه ضربة ثانية حاسمة من قبضتي، جعلته يئن ثم يتمالك بعضاً من رباطة جأشه ويسدد لي ضربة مماثلة من قبضته التي اتضح تأثيرها عليّ حتى أني لم أكرر الضربة الثالثة..

– ما دمت ترفض المجيء معي ستأتي للإتيان بك مفرزة من رجال الشرطة المدنية..

– سنرى يا كلب كيف ينبغي مواجهة الغيلان من أمثالك!

– طيب عن قريب ستعرف من هو الكلب؟ وستعلم أن حبل الكذب قصير أيها الفاسق الدجال، ماهي حكاية البنت فاطمة التي أردت اختطافها بعد فشل مشاريعك مع أهلها وذويها؟

– أين كانوا يخفون كل هذا التلفيق والكذب؟ من أجل ماذا يا رجل؟

– من أين أتتك هذه الوكالة التجارية؟

– لا وكالة ولا هم يحزنون!!

– لن تفلت هذه المرة من قبضة القانون، وسوف أرسلهم ورائي للبحث عنك ولا محال، سيتم القبض عليك عاجلاً أم آجلاً!!

كان غضبي منه يتصاعد مع اللحظات، حين أمسك رجل يضع شارة قرمزية على ساعده كالطوق، وأمسك الرجل القصير بقوة واضحة، كنت أرى ما يجري أمام عيني بوضوح:

– ما الذي تفعله هنا؟ لقد حذرتك من قبل، لكنك لم ترعو، إهانتك ترضيك ويبدو أنك اعتدت على المزيد من الصفعات، ماذا تريد من هذا

مكتبة الفكر الجديد

المواطن الطيب؟ لقد أفسدت الكثير من الأمور، وقد حق عليك الصفع الآن.

كنا نتبادل النظرات فيما بيننا أنا والرجل القصير وكنت أضع طيف ابتسامة تشف على وجهي وهو يضع مسحة حزن ممزوج بغضب مستطير ولم ينبس بكلمة واحدة وقد فوجئ بالرجل صاحب الشارة القرمزية، وفي لحظة خاطفة دوت صفعة زلزلت الرجل القصير الذي تضاءل إلى الحد الذي كادت دمعته تطفر من عينيه..

رأيت الرجل القصير يختفي ويتلاشى حضوره من أمام ناظري بسرعة عجيبة كأنه كان بانتظار أن تأتي سيارة مسرعة حسب اتفاق مبرم من قبل وتأخذه في الحال، فقد ثمل الكثير من الحضور ونام البعض على أكتاف البعض الآخر من السكارى الذين يعرفهم أو أولئك الذين لا يعرف من أين نبعوا، رفع الرجل ذو الشارة القرمزية ذراعه في الهواء ولم ينبس ببنت شفة بل ظل يراقب المشهد برمته عن كثب كنت أدور بين الموائد الغاصة بالبشر القادمين من كل فج عميق، الحانة ليست بالكبيرة ولا هي بالصغيرة وانا أعلم أن لها عمقاً يمكن أن يجعلها في الليل عبارة عن متاهة لا يمكن السيطرة عليها، لأن معظم روادها يغدون سكارى تهيمن الحيرة على قلوبهم القلقة، ورائحة الدخان هي خليط من تبوغ أتت من مناشئ عدة، ولا يستطيع المرء أن يعرف من أي البلدان يشم دخان السجائر الدائر في فضاء الحانة حيث كلكل الليل عليها وعلى المعمورة جمعاء وأضيء النور الشحيح في الزوايا والأركان المعتمة أصلاً، أريق خمر كثير، وتنادى نفر من الحضور إن الخمور الوطنية ستكون بالمجان، أما الخمور الأجنبية سوف تباع بالعمله الأجنبية، وضحكت من صميم قلبي لأني فكرت أن لا أحد سيتوجه إلى الخمور الأجنبية، وسنرى كيف تتم المنافسة بينهما، ورأيت رجلاً يدق على صدره بفرح وبين يديه يحتضن قنينة خمر محلية

مكتبة الفكر الجديد

والضحك الماجن يملأ شدقيه، رأيت ثلاث نساء يدخلن الحانة بعد البحث عن أزواجهن الذين غادروا البيوت منذ الصباح الباكر و لم يعد منهم أحد، وتبين بعد مدة وجيزة إنهن لم يتزوجن قط وما زال حلم فارس الأحلام يراود جفونهن.. رأيت كهلاً يطوي بذراعه الطويل، خصر فتى يافع طري العود ويناداح به بعيداً في زاوية قصية معتمة، وفكرت في الزاوية التي سألجأ إليها هذه الليلة، نعم هذه الليلة وكل ليلة قادمة وقد حرّم البغاة عليّ الوصول إلى البيت، أخشى إن وصلت إليه ينقضّون عليّ في الحال، ويعيدونني إلى ذلك الجحر الذي لا يمكن أن يعيش به إنسان مهما كانت طاقته على التحمل، فهو صائر إلى الموت، ترى أين تنام فاطمة هذه الليلة و الليالي الأخرى؟ وما الذي تفعله فتاة غشيمة العقل كهند التي سلمت نفسها إلى أول طارق باب لذتها المهدورة، كيف لها أن تعيش بعد اليوم وسط أهلها ومعارفها إذا ما أصبح السر مكشوفاً وما كان مستتراً صار مفضوحاً ومعلناً عنه ويشار إليه بالبنان؟ ما الذي ستصنعه المرأة المعذبة بالزوج الذي راح بين الخسائر غير المعترف بها، لا حقوق له حتى الآن، لم يعترف بموته أحد وقالوا لها: أنت زوجته اكتبي إلى وزارة حقوق الإنسان، حتى يتم النظر في موضوع استشهاده!! قالت لهم: ما دمتم تعترفون بأنه شهيد لماذا لا تعترفون بحقوقه؟ ضاعت حقوق الرجل كقشة في مهب الريح و لم يعد يتذكره أحد، هي الوحيدة من بكته بمرارة وحزن وعاهدته بأن لا يلمسها أحد مهما كانت منزلته الاجتماعية، لن تسمح لرجل أن يمد جسده إلى جانب جسدها، ولا تسمح لنفسها بالتهاون بقسمها ولن تحنث به ويبدو أن ما اتخذته من التزام جعلها تبدو ذات ملامح لا تخلو من صرامة، بل أن ثمة نظرة قاسية كانت تصاحب حديثها مع الناس، وراحت تنعزل في مدرستها ولا تتسامح مع نفسها إذا استرسلت في الحديث عندما ينطوي على مسحة من مرح كانت تخاطب نفسها باستمرار: لو كانوا منحوه حقوقه التي تؤكد على استشهاده،

مكتبة الفكر الجديد

حيث تترتب حقوق أخرى غير منظورة وربما تشمل البنت هند كونها ما تزال طالبة جامعية، حقوق تساعد الأم على تطوير حياة الأسرة مستقبلاً، كتعيين هند بعد التخرج مباشرة، هل من ينكر حق البنت اليتيمة؟ التي فقدت أعز ما لديها، هو الأب الحنون الذي كان لا يكف عن تفقدها ليل نهار وخصوصاً في الساعات الأولى من الليل حيث يناديها بصوته القوي الذي فيه خنة محببة لمن يسمعها لأول مرة، وهي، هند كانت تحب تلك الخنه وكانت تمازحه بمودة عالية النبرة كلّما زاد من مزاحه درجة، الآن هي تفتقده وقد كانت تبث لوالدتها همومها وحاجتها لوالدها في أكثر من مناسبة، كما بثت جانباً من تلك العذابات للخال عبد الله، وهو ماذا باستطاعته أن يفعل للبنت اليتيمة التي تعاني فقدان الأب، هل يمكن للخال أن يصير أباً عطوفاً؟ قال لها مبتسماً ابتسامته المعروفة لديها المليئة بالدف، والثقة بالنفس، حتى يخيل لها أن هذا الخال العنيد يستطيع أن ينقذ قارباً وسط البحر الهائج، وانفجر بضحكة قوية:

– أبداً لا تضعي كل ثقتك بي فأنا لم أستطع أن أتدبر أموري مع أهل المسرح وهم أناس طيبون دون شك فكيف أتدبر الحال مع الآخرين؟

وقالت له هند:

– لا أطلب منك فوق طاقتك، حاول معه لعلك تصل إلى نتيجه ترضيني وتطمئن خاطري..

وسألها الخال:

– وإذا رفض كل منطق آتي به؟

– لا يمكن إلا أن تقنعه، لديك الحجة والمنطق؟

لكن الخال عبد الله لم تتيسر له فرصة اللقاء بالعريس المنتظر، بل التقى بالخاطفين الذين قلبوا الدنيا رأسا على عقب، وانتشروا كالضباع المسعورة

مكتبة الفكر الجديد

ساعة هروبه من أيديهم، والآن جاءوا يقتصون مما فعله التاجر الوسيط بهم، وعرف أخيراً ما يستندون إليه من تهمة ملفقة ضده قد تسوقه إلى السجن لأعوام، ربما سبعة أو عشرة أعوام، حتى تتاح له فرصة مناسبة لإثبات العكس، بعدها يكون قد دفع الثمن باهظاً من عمره وحريته و كرامته، إذ لا مفر من التفكير الواعي بما يخططون له (وكيف يكون التفكير واعياً؟) هو واحد وهم عشرة وربما عشرون كل واحد منهم يقيم عليه دعوة قضائية، يدعي فيها أن السيد عبد الله، اتفق معه على وساطة تجارية لجلب بضائع وسلع من الأردن وسوريا يوفر لهم فيها كميات مناسبة وحسب الطلب من سلع وبضائع يتم الاتفاق على ثمانها حسب النوع والكمية المتفق عليها سابقاً وتخضع الكمية وكذلك النوع والمنشأ، حسب اتفاق يمكن تجديده، وعليه منح السيد عبد الله مبالغ كبيرة من قبلهم باعتباره تاجر وسيط ومعروف للجميع.. أرعبته الصورة التي رسمها له الرجل القصير وقد استكملها الآن وحده بدافع من الخوف والشعور بالوحدة والعجز من الإتيان بحل لموضوع اختطافه أو حتى ما آلت إليه حالة هند وعلاقتها الغامضة مع الشاب رياض الذي لم يره و لم يلتق به من قبل، وإذا كان عاجزاً عن حل أبسط المشكلات التي تؤرق الناس العائدين له، فكيف يمكنه أن يحسم أمراً أصبح معقداً ومتداخلاً بالنسبة له؟

اندفع نحو إحدى الموائد وطلب من أحد الشاربين أن يتناول على مائدته كأساً لأن لا مائدة له وأنه دخل الحانة بحكم تردده عليها فيما سبق من أيام مضت، أيام كانت الموائد عامرة بما لذ وطاب، وأشار عليه الشاب بالجلوس إلى مائدته، استجاب عبد الله في الحال، وقدم له الشاب قدحاً مليئاً بالعرق المحلي، قائلاً له: – إنهم يوزعونه بالمجان..

تردد بادئ الأمر لكن الشاب، قال له:

– أنا أيضاً ترددت بتناوله ولكني لما جربته أدركت أني أطلقت حكماً

مكتبة الفكر الجديد

متسرعاً.. عندئذ شكره عبد الله وأخذ رشفة صغيرة من القدح، ثم هز رأسه للشاب، علامة الموافقة والاتفاق على جودة الخمور المحلية.. شعر عبد الله بنشوة بعد الرشفة الثالثة من القدح:

- لَم هذه الضجة في الخارج؟

قال الشاب دون كثير اهتمام بالسؤال:

- إنهم يحاولون اقتحام الحانة،

كاد ينتفض وقد اهتز الكأس بيده:

- من يقتحم؟

- يقال الشرطة تصاحبهم جماعة من البدو.

اهتزت موازين عبد الله في الحال وشعر أن القدر يقف بوجهه أينما اتجه أو سار، إذن، عليه أن يتخذ المزيد من الاحتياط لساعة يتدفق فيها البدو، وأدرك عبد الله أن الشاب يقصد بهم خاطفيه، وأراد أن يصحح للشاب معلومته الخاطئة بشأن البدو، وأنه يقصد عصابة للخطف والاغتيال.. لكنه أرجأ هذا الأمر إلى وقت يكون التصحيح أمره ضرورياً ولا مفر منه..

- ما الذي يريده البدو في حانة تغص بالسكارى؟

- لا أعرف على وجه الدقة ولكن البعض يقول أن ثمة من خدعهم بصفقة بضائع وهمية..

-هل تصدق هذا الادعاء؟

- الأمر كله لا يعنيني كثيراً

ابتسم عبد الله إلى الشاب حال سماعه عدم اكتراثه بالامر، ولما تبادلا النظرات فيما بينهما، حرك عبد الله رأسه حركة أوحت للشاب بعدم

مكتبة الفكر الجديد

الاتفاق على وجهة نظر الشاب الذي أخذ قدحه بين يديه ودفعه في فمه بدفعات ثلاث.. قال عبد الله:

– أما أنا فالأمر كله يعنيني تماماً.

– بماذا يعنيك؟ هل أنت من البدو المخدوعين؟

– هل تصدق ما يقال يا أخي؟ لا يوجد من هو مخدوع في الأمر كله!! وبنبرة سخرية تساءل الشاب:

– إذن أنت لست من الخادعين ولا من المخدوعين!!

تلك الأثناء جاء شاب آخر واتخذ مكانه على المائدة، حسبه عبد الله بادئ الأمر شخصاً غريباً ولكن تبين أنهما أصحاب منذ زمن بعيد كما هو واضح من استقبال الشاب الأول للشاب الثاني:

وأخيراً كيف ستنتهي الأمور؟

الشاب الثاني: – لا أعتقد أنها ستنتهي على ما يرام!!

الشاب الأول: – هل تريد أن ننهي جلستنا ونذهب إلى مكان آخر؟

الشاب الثاني بقناعة تامة: – لا أعتقد أنهم يسمحون بالخروج لأحد مهما كانت الحالة..

الشاب الأول يضع قدحه على المائدة ويوزع نظراته بين عبد الله وبين الشاب الثاني، يسأل مستفسراً عن الأمر كله:

– حتى لو ادعيت المرض الخطير؟

الشاب الثاني: حتى لو ادعيت المرض الخبيث!!

الشاب الأول: عليهم لعنة الله أراهم جادين هذه المرة، من الضروري أخذ الحيطة والحذر!!

مكتبة الفكر الجديد

الشاب الثاني: تقول آخر التقارير أنهم يعدون العده لحملة واسعة تشمل الإنسان والحيوان..

يتدخل عبد الله جزعاً: - إذا كنتم جادين فيما تتكلمون عنه وحوله، دعوني أشارككم أو اسمحوا لي بالمغادرة حالاً..

الشاب الأول: - بالعكس نحن جادون فيما نقول ولكن لا يسمح للغرباء بالتدخل في شأن ينبغي أن يظل مستتراً ومخفياً عن الآخرين..

وقبل أن ينهي كلامه، جاء رجل وامرأة وتبادلوا النظرات بشأن الغريب الجالس معهم حول المائدة، وخطت المرأة خطوة نحو عبد الله، وقالت:

- أنا على يقين أنه هو الرجل الذي تجاوز حدوده معي حين كنا نقف في طابور للحصول على حصتنا من البقوليات..

انتفض عبد الله من مكانه وصرخ بالمرأة:

- أي بقوليات يا امرأة أنا حتى لم أشاهدك من قبل، اتقي الله يا أختي؟

قال الرجل الذي اصطحبته المرأة معها:

- انهض يا عبد الله، هيا أنا أعرفك جيداً..

قال الشاب الأول: لن يذهب مع أحد فهو صاحبي، كما أن المرأة ليست متيقنة من اتهامها له..

قال الرجل صاحب المرأة: لماذا تورط نفسك بمشكلة أنت في غنى عنها؟ كما أن الأمر كله لا يعنيك أنت وصاحبك..

قال الشاب الثاني: بل العكس أنه يعنينا تماماً، والرجل صاحبنا ولن نسكت عن أي ضرر يلحق به..

ثانية انتفض عبد الله: اسألوها من أنا وما هي مهنتي وما هو اسمي؟

مكتبة الفكر الجديد

لوح الرجل ذراعه: بالطبع هي لا تعرفك إنما تعرف نفسها اهـ ، كرامتها بين الناس!!

تساءل عبد الله: والآن ماذا يريد الأخ؟

قال الرجل:- الاعتذار من السيدة..

وقبل أن يجيب عبد الله، قال الشاب الأول:

- لا اعتذار ولا هم يحزنون، سنمضي العمر كله بالاعتذارات التي لا معنى لها..

قال الرجل بانفعال شديد: حسناً ستدفعون الثمن غالياً..

قال الشاب بنبرة مليئة بالسخرية: - واضح أنك لا تعرف مع من تتكلم يا مجنون؟

في اللحظة ألقى الرجل فيها تهديده وأخذ المرأة أمامه مندفعاً بالاتجاه المعاكس، في تلك اللحظة، فكر عبد الله: أن أعداءه أصبحوا كثيرين ومن الصعب عليه أن يتدبر أمره معهم ولا بد من الوصول إلى حلول مقنعة غير الاستسلام لهم، مهما كلفه ذلك من ثمن.. ومع هذا الإصرارعلى المواجهة، كان ثمة خوف لا يستطيع تجاهله مهما حاول التغاضي عنه، فهو يراه يكمن في العمق البعيد من نفسه غير المستقرة، وقال: آه لقد ضاعت فرصتي في كتابة مسرحية الصرة أو الحقيبة و لم يبق إلا الحانة وها هو ضائع في فوضاها غير المنتهية، وقال لا بد للبصري أو (أبو العز) أن يسألا عنه وفكر جاداً في حتمية عودته لهما، ولكنه لم يلمس أية مبادرة منهما في البحث عنه من قبلهما، وخيل إليه أنه لمح طيفهما من بعيد ولكن لم يكن متيقناً من تصوراته بشأنهما، وتمنى من صميم قلبه أن يذهب أحدهم ويطمئن عائلته، إنه على يقين من الفوضى التي أحدثها غيابه عنهم، وأمه وأبوه لن يقر لهما قرار على سلامته ما لم يشاهداه بعينيهما

مكتبة الفكر الجديد

حياً يرزق، وهو على يقين من حالة السهاد التي لازمتهما منذ انقطاعه عن البيت وتضارب الآراء حول غيابه المفاجئ..

قدم له الشاب الأول قدحاً ممتلئا كما ناوله صحناً من المازه، أخذهما وألقى نظرة سريعة على القدح، ارتشف منه رشفة كافية جعلت الشاب يبتسم له بمودة خالصة:

– حتى الآن لم نسألك من أنت ومن هذه المرأة التي ادعت تحرشك بها؟ ثم ما حكاية ذلك الرجل الذي أراد أن يأخذك معه؟ واعتراضك على وجود بدو عند باب الحانة؟ لم هذا كله؟ قال لهما:

– أنا أيضاً أقول لم هذا كله؟ حتى أني لم أفعل شيئاً مؤذياً أبداً!!

– اصدقنا القول لقد أصبحنا أصدقاء.. أليس كذلك؟

– أرجو ذلك، كنت مختطفاً من قبل ناس لا أعرف لماذا اختطفوني أنا بالذات؟

– هل هذا الكلام تمثيلية أم حقيقة حصلت معك؟

– بل هي أكثر الحقائق التي تعيش معي وضوحاً!

– حتى الآن لم تعرف من اختطفك ولماذا؟

سأله الشاب الثاني: ما هو عملك قل لنا بصراحة؟ هل أنت تاجر بالوساطة بين التجار العراقيين والتجار العرب كما أشيع عنك؟

– أبداً إنما أنا مؤلف مسرحيات..

– مسرحيات؟ إذن أنت المسرحي الذي يحرص البعض منا على العثور عليه، حسناً ماذا تقول في مسرحياتك؟ هل تتحدث عن النساء الجميلات؟ أم عن التجار المفلسين؟ وعن حرامية الكهرباء؟ عن أي شيء تتكلم مسرحياتك؟ أم تتحدث عن الخطف والاغتيال وسرقة المال العام؟

مكتبة الفكر الجديد

– عن كل هذا تتحدث مسرحياتي وتفضح السيء الذي لا رجاء من إصلاحه!!

– حسناً ما علاقة المسرحيات بالاختطاف؟

– سأحكي لك المسأله كلها! في الحقيقة لا علاقة بينهما، ولكن الخاطفين، استلموا معلومة خاطئة بشأن عملي..

– ماذا تقول المعلومة؟

– تقول أني تاجر وسيط بين التجار العراقيين والعرب.. وهو أمر ملفق وقد لحقني من ورائه ضرر كبير!! لقد خلقه أعدائي انتقاماً مني..

– من هم أعداؤك وماذا يريدون منك؟

سأل الشاب الثاني: – هل سبب الخصومة مادية؟ أم يخص العمل؟

انتبه عبد الله لنوع الكلام الذي تفوه به الشاب الثاني؟ إنه منطق أعطى لعبد الله أنه يدخل تجربة جديدة مع الآخرين أو أن تجربة كتابة مسرحية من النوع المفتوح تفرض نفسها عليه، وربما لم تعد الأمور تسير بما تشتهي السفن!! ولكن متى سارت الأمور كما يتمنى وكيفما يريد، هي دائماً تعاكس ما يتمناه عبد الله ويطلبه من قدره، وكان يخاطب هند بقوله:
– مصائر لا نستطع تبديلها أبداً.. وكانت هند تحفظ عدداً من المأثورات والحكم كان عبد الله قد أعطاها لها قبل ثلاث سنوات مضت، تبادر بقولها له:

– إذا لم تعجبك حياتك فبدلها أليس هذا هو المنطق الصحيح؟

ولكن كيف يمكن له تبديل حياته؟ بقوة السلاح؟ هو لا يريد من أحد أن يقول عنه استخدم سلاحاً؟! كما لا يريد أن يكون خانعاً!!

سأله الشاب الثاني: – لم تجبني على سؤالي؟

مكتبة الفكر الجديد

– لا أتذكر محتوى السؤال؟

:– محتواه، إن كانت أسباب الخصومة مادية أم تخص العمل؟

– يمكن أن تكون الأسباب مشتركة.. إذن أنت تاجر ومؤلف مسرحيات، يعني تكتب ما تعيشه على صعيد العمل؟

– أتمنى أن يحدث هذا في الواقع!!

– هل نفهم أنك عقدت صفقه مع آخرين كما يتهمونك الآن؟

– لكما ما تعتقدانه عني فقد أخبرتكما الحقيقة!

– حسناً نصدقك وليس أمامنا غير ذلك، ما هو المطلوب منا إذا قررنا أن نكون أصدقاء لك ونمد يد العون، ما مطلوب منا؟

– يجب أن أبتعد عن الحانة، أريد الخروج إلى أهلي أو بعض معارفي على الأقل..

لم يعد خافياً عليهما أن السيد عبد الله كان صبره ينفذ لأن لا حياة تنتظره في الحانة، وهو يريد الخروج في الحال.. والذي ينتظره خارج الحانة كثير، لكن كيف يمكنه الخروج؟ ذلك هو السؤال. هل يراوده سؤال آخر عن تورطه غير المعقول حين وطأت قدماه أرض الحانة وهل هي غرام أم انتقام؟ ولكن انتقام من أي الأشخاص؟ الذين يعرفهم أم الذين لم يتعرف عليهم؟ إذن مغادرة الحانة هو الهدف الوحيد الذي ينبغي السعي من أجل تحقيقه شرط ألا يأتي على حساب كرامته!! وتساءل بسخرية مريرة ترى ما المقصود بالكرامة وهل هي، يقصد الكرامة الشخصية، يمكن أن تكون حقيقة ملموسة للأشخاص الذين يخاصموننا أو أولئك الذين نعرفهم ونأخذ بمشورتهم؟ وكيف ينظرون إلى كرامة جاري هاشم دقله الذي لا يجيد القراءة والكتابة، ولا يجيد إلا الأعمال اليدوية أو تلك التي تتطلب جهداً جسدياً وحين سأله عبد الله عن الأعمال التي يحسن القيام بتنفيذها؟

مكتبة الفكر الجديد

ضحك دقله وقال له: أستاذ عبد الله لم أتعلم في حياتي سوى السياقة، ولكن أين هو مالك السيارة الذي يثق بي ويعطيني سيارته للعمل فيها؟

– ستأتي الساعة التي نأخذك فيها بعيداً عن هنا..

قال الشاب الثاني: حالما يأتي الليل نستطيع أن نتدبر لك أمر المغادرة..!

– مقابل ماذا؟ أعني الثمن.

– ما نريده أمر بسيط ولا يكلفك شيئا خطيراً، نحن في الحقيقة نبحث عن مؤلف مسرحيات وروايات وسوف يأتي ثالثنا خلال دقائق وهو الذي يعرف ما يريد منك!! ثم بعد لحظات مرت خجولة ومرتبكة قال الشاب الأول:

– أليس أعداؤك جماعة من البدو كما ذكرت؟

– أنا لا أعرف من هم أعدائي إن كانوا بدو أم لصوص لفقوا لي تهمة الوسيط التجاري

– أنت مؤلف مسرحي وليس تاجراً؟

– بالضبط إذا أردتما الحقيقة..

– طيب أنا في يوم ما كان لي طموح في أن أكون ممثلا!

– لماذا تسأل عن الثمن هل يعنيك الأمر حقاً؟

كان عبد الله لا يدري ما إذا يجدر به أن يمنحهما ثقته أم يصارحهما بشأن تردده أو بالأحرى قلقه مما يقولانه، وفكر في احتمال ضياع الفرصة من بين يديه، إذا هو رفض الموافقة على مساندتهما له.. ثم بعد تأمل قصير:

قال لهما: – حتى الآن لم تفصحا عن الذي يريده ثالثكما؟

– لدينا الوقت الكافي لكي ننتظر هل أنت على عجالة من أمرك؟

مكتبة الفكر الجديد

– ولكن لم أعرف الثمن حتى الآن؟

– الثمن بسيط وهو من بين اهتمامك ولن نطلب منك فوق طاقتك.

– أتمنى ذلك لكي أعرف كيف أخاطب الآخرين..

– بالضبط، وهذا من حقك تماماً..

وقبل أن ينهي عبد الله (الذي تحول اسمه إلى اسم آخر هو أيوب) كلامه جاء رجل أنيق المظهر، حسن الهندام، من الواضح أن خطواته الهادئة وابتسامته التي تعلو صفحة الوجه، هي حركات لا يمكن لشخص مثل عبد الله أن يغيب القصد منها، وتساءل مع نفسه: إن كان الرجل ممثلاً في أحد المسارح التجارية أم كان مذيعاً من العهد الماضي، حيث الأناقة المفرطة جزء من مستلزمات العمل اليومي في الإذاعة وكذلك في التلفزيون.. اقترب الرجل الأنيق من المائدة، وبطريقة مسرحية مبالغ فيها ألقى التحية على الشابين أولاً ثم استدار نحو عبد الله يخاطبه:

– كيف حال كاتبنا المسرحي الطيب؟

انتفض عبد الله في مكانه، وشعر أن معظم خططه ومحاولات التخفي عن الغرباء باءت بالفشل، عاد الرجل الأنيق مرة أخرى يتوجه بالكلام إلى السيد عبد الله بقوله:

– أما زال الغرباء يطاردونك؟ الكثير من متابعيك تهمهم سلامتك سيد عبد الله..

وحالما تلفظ الرجل اسم عبد الله، أدرك الأخير أنه مرصود منذ زمن ليس بالقصير، وأنه لا مفر من أن الرجل سبق له أن تعرف عليه في وقت قريب مضى، وجاءت صورة الرجل تخطف بسرعة في رأسه، إنه هو لا غيره، أنه الرجل الذي التقاه على مائدة (أبو العز) قبل وصول الغرباء بلحظات.. ولما عاد الرجل يقول: – أنا شخصياً أجد اسم أيوب أكثر

مكتبة الفكر الجديد

مناسبة وانسجام مع شخص الأستاذ عبد الله، ماذا يقول الأخوان؟

قال الشاب الأول: – أنت أكثر منا معرفة بهذه الأمور.

– واضح أنكما تعرفان بعضيكما من قبل؟.

قال الشاب الثاني: نحن الآن في حيرة من أمرنا! بماذا نناديك وبأي اسم نناديه؟

قال الشاب الأول: أنت اسمك عبد الله والسيد المؤلف هو الآخر اسمه عبد الله!!

قال الرجل الأنيق: كلا السيد المؤلف لديه اسم آخر يمكن الاستفادة منه في حال وجود أشخاص يحملون اسم عبد الله، كما هو الحال معي الآن!!

ثم تبادلوا النظرات فيما بينهم، قال الرجل الأنيق:

– ليكن اسمه أيوب، أرى أن هذا الاسم يليق به كما أجده منسجماً مع الحالة التي يعانيها..

ارتسم على وجوه الجميع طيف ابتسامة، اتسم بالشحوب، طيف ابتسامة يكاد يتلاشى أمام غموض الحالة التي اكتشفا أن من الصعب عليهما مغادرتها فقد أدخلهم الرجل الأنيق في بوتقة صارمة من الالتباس المحكم، كانوا جميعهم مذعنين إلى ما سيتم أو يصبح أمراً لا مفر من حدوثه، إنهم يتلمسون ولا يعرفون ما الذي سيحدث

– ألا تقدمون لي قدحاً ما دمت ضيفاً على مائدتكم؟

وبهدوء تام امتدت يده إلى أقرب قدح ليتناوله ويرتشف منه جرعة خفيفة ثم أعاد القدح إلى موضعه على المائدة وبحركة انزعاج واضحه علت وجهه تكشيرة غاضبة وجهها إلى الشابين معاً:

هل تسقيان السيد المؤلف خمرة صنع محلي؟

مكتبة الفكر الجديد

قال الشاب الأول: إنهم يوزعونها بالمجان!!

قال الشاب الثاني: في البداية لم نكن نعرفه إلا بعد تبادل الأنخاب!!

قال السيد المؤلف:- بالمناسبة أنا لا أريد من أحد أن يناديني بالسيد أيوب، هذا الاسم ليس اسمي الحقيقي، لقد ألصقه بي رجل لا معرفة لي به من قبل..

- الذي ناداك به هو أحد معارفك أو أصدقائك..

كان هذا هو جواب الرجل الأنيق.

قال السيد عبد الله الذي ألصق به اسم السيد أيوب:

- أنا لا أصدقاء لي!!

ضحك الرجل الأنيق والذي اتضح أن اسمه: عبد الله:

- الذي أسماك أيوب هو أعز صديق لديك إنه أبو العز، أليس كذلك؟

- انتهى ذلك العهد الذي كان فيه أبو العز صديقي!!

تبادل مع الشابين النظرات ذات المعنى، ثم علّق على فمه ابتسامة وخاطبه: - نحن أصدقاؤك هل توافق؟

- أنتم؟ من أنتم؟ أتقصد من هو حاضر بيننا الآن على هذه المائدة؟

- بالضبط!!

تلفت مبتسماً لهم ولم ينطق بكلمة بادئ الأمر، وكانت ابتسامته العابرة شجعت الرجل الأنيق إلى القول:

- نحن سعداء بالكاتب المسرحي الذي سيشرفنا بصداقته..

- لكنني لا أعرفكم كلكم

مكتبة الفكر الجديد

– ستتعرف علينا لاحقاً وستعرف ما هو مطلبنا منك إذا أردتنا ندافع عنك بل ونحميك من كل سوء!

– ما أريده هو الوصول إلى بيتنا في البياع..

– سوف تصل سالماً ونحن الذين نحرسك حتى تطمئن على سلامة العائلة.

– لم يعد للعائلة غيري ومرتب أبي التقاعدي وهو الآن رجل أتعبته الحروب الماضية التي أكلت من الناس أكتافها وعيونها..

ضحك الرجل الأنيق ضحكة مبتسرة ورفع قدحه بوجه الحاضرين وقال بصوت تقصد أن يأتي مسموعاً للجميع:

– لنرفع نخب الأستاذ، هيا ارفعوا نخبه..

بالفعل رفعوا كؤوسهم دفعة واحدة وسكبوها في أفواههم إلا هو المؤلف المسرحي الذي لا يعرف ماذا يريدون منه على وجه الدقة وقد حيرته هذه الصداقة المفاجئة والغامضة بل الغريبة عليه، كيف يتجرأ الرجل الأنيق على هذا النوع من المزاح معه؟ أهو صديق قديم؟ أم أنه مجرد متطفل على المائدة التي بدأت تنمو كلما مضى الوقت بهم، وانتبه إلى أنه لم يكن قد ساهم في ترميم المائدة، بل كان يتناول خمرته على طريقة الصعاليك، ترى هل صعلوك ينتظر غزوته بعد منتصف الليل، ليجهز على طريدته، أم أنه يرى أن زمن الصعاليك قد ولّى، و لم يعد لهم من وجود فعلي بعد اليوم:

– كل هذا من أجل ماذا؟

– من أجلك أنت!!

– ومن أجلكم بالطبع

– بالضبط!!

مكتبة الفكر الجديد

– طيب، دعونا نتكلم بوضوح.. أنا أحب أن تتم تفاهماتي، بصراحة لا شك فيها.

– هذا كلام معقول، نحن نخرجك من هنا إلى بيتك سالماً وأنت تنفذ ما نريده منك. ومطلبنا ليس غريباً عليك، أي هو من اهتمامك وهوايتك ولا نكلفك أكثر من طاقتك: إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها..

قال الشاب الثاني: صدق الله العظيم.

استجاب الجميع إلى الصوت إلا هو، ظل صامتاً ينظر مرتاباً، وكانت نظرته إليهم كأسير، وهم أيضاً بادلوه النظرات التي تبحث عن حل من الحلول التي لا تتعدى أرنبة الأنف، كان يعي أنهم ليسوا من أصحابه ولا حتى معارفه أو يمتون إليه بأي صلة مهما كان نوعها، إذن كيف تراه سيثق بهم ومن أجل ماذا وأي الأشياء يريدون؟ حتى لم يشيروا إلى نوع العمل الذي سيقوم به حسب طلبهم أو ما يريدونه منه، سوف يكون جاداً معهم ويكون شجاعاً إذا ما أرادوا أن يدفعوه إلى القيام بعمل لا يليق به، عندئذ سيكون له معهم شأن يتعبهم أكثر مما سيتعبوه، ولكن إذا رفض مطلبهم كيف سيواجه اللصوص والخاطفين والقتلة؟ أي قوة لديه لمقاومة أناس لا مقدرة له عليهم، بادر الرجل الأنيق بقوله: – ألا تريد أن تسمع منا ماذا نريد منك مقابل ليس حمايتك وحدها بل تنفيذ أي مطلب تفرضه علينا وسنكون حماتك في السراء والضراء ولن نسمح لأحد أن يقف في طريق صعودك!!

قال: طيب إنني أصغي إلى ما تطلبونه مني الآن..

قال الرجل الأنيق: نرجوك يا سيد أيوب أو عبد الله إذا أردت المحافظة على اسمك القديم.. ضحك:

هل أصبح اسم عبد الله من الأسماء القديمة، وعلى العموم، أنا في

مكتبة الفكر الجديد

الحقيقة أحب اسم أيوب وهو اسم ينطبق على المعذبين في العالم كافة..

قال الشاب الأول: هل تعتبر نفسك من المعذبين في الأرض؟

– ما دام يوجد على الأرض قوي وضعيف والقوي يتحكم بمقدرات الضعيف، إذن نحن جميعاً ضعفاء إذ لا بد من وجود قوي أكثر قوة وهيمنة من القوي السابق له..

ضحكوا كلهم و لم يرد عليه إلا الرجل الأنيق الذي اتضح أنهم يؤمرون بأمره: – واضح أنك فيلسوف يا أستاذ أيوب؟

– الصراع بين الأقوياء والضعفاء لا يحتاج إلى فلسفة يا سيد.....؟

– اسمي عبد الله، ألا تصدق؟

– ألا يثير هذا الذي تقوله العجب في النفوس؟ أدخل هذه الحانة مع صحبة قديمه وسوف أخرج من هنا بصحبة غيرها، ودخلت باسم عبد الله وإذا بهم يستبدلونه باسم أيوب وعندما أغادر الحانة، ربما لا أعرف اسمي ولا شخصي وأنا أعلم جيداً أن ثمة من قام بهذه المبتدعات، شخص آخر هو في الحقيقة مؤلف قصص وحكايات تولّع بهذه الطرائق ردحاً طويلاً من الزمن حتى أنه كان يرى فيها ضرورة لفنه وملحاً لمذاق القصص التي يؤلفها..

– لا تتعجب يا سيد أيوب من كل شيء تراه أو تسمع به!!

تناولوا أقداحهم وتجرع قدحه معهم كان عليه فرض لا مناص من تأديته معهم.. قال الرجل الأنيق:

– أتعلم ماذا نريد منك يا سيد أيوب؟

– أولاً اسمي عبد الله وليس أيوب وثانياً كيف لي معرفة ما تريده مني؟

مكتبة الفكر الجديد

– حسناً أنا اوافق على ما تريده وما تقترحه يا سيد عبد الله، وما نريده هو كتابة مسرحية أو رواية تشيد بتاريخ الرجل الكبير، أي أن تقوم بكتابة تاريخ آبائه وأجداده وتذكر كل الأمجاد التي تليق بمكانته، إنه سيكون معك ومعنا سخياً جداً، وإذا ما جعلته كتابتك مسروراً سوف تنال الرضا منه وتكون المقرب الأول إن لم تكن المفضل بين مريديه وأصحابه، وحذار من الرفض أو السخرية من مشروع كتابة تاريخ الرجل الكبير، واعلم أنه بقدر كرمه المعروف وسخائه الملموس فإن غضبه لا يحتمل ولا يطاق حيث تختفي الرحمة من قلبه رغم أنه يعرف كيف تسير أمور الناس ولديه المعلومة الكافية عنك..

ابتسم له بعد هذا الخطاب المجلجل: – هذه لغة يسميها أهل الفن بلغة الترغيب والترهيب!!

– لا يوجد أي إرهاب في الأمر كله، وعندما أخبرتك بضرورة ألا تمتنع أو ترفض المقترح إنما كان الدافع الحرص عليك..

– ألا تعتقد أننا ندخل بأقدامنا إلى أرض خطرة؟

قال الشاب الثاني:– لا أرى أية خطورة في الموضوع يا سيد عبد الله، كما تريد أن نسميك؟

قال الرجل الأنيق: دعونا أنا وهو فقط نتكلم في الموضوع!!

– هذا الذي تقوله عن الرجل الكبير هل هو موجود في دساتير وأوراق ولديكم وثائق قديمة بشأنه؟ أم تريدونني أنا من يكتبه ويبتدع له تاريخاً ليس موجوداً و لم تكن له أحداث وأنه مجرد نكرة يراد مني أن أصنع منه عملاقاً ولو من طين؟

أمسك الرجل الأنيق بذراع عبد الله الذي تحول اسمه إلى أيوب وقال له والابتسامة العريضة تملأ فمه:

مكتبة الفكر الجديد

– كأنك في قلبي والله يا أيوب، معذرة قصدت يا عبد الله لأنك أدركت ما أقصده بكلامي كله معك فأنا أعتبرك عبقرياً في التأليف والتفكير والمنطق أيضاً.

– والآن اتضحت الفكرة وذهبت السكرة، يراد مني أن أكتب تاريخاً ليس موجوداً أبداً!!

– يمكنك القول أنه ليس موجوداً. صح؟

– حتى لو زيفت حقائق التاريخ واختلقت للرجل المعني تاريخاً لم يخطر بباله من قبل؟

– يا لعبقريتك النادرة يا أستاذ.!!

– طيب، لماذا يصر صاحبكم على امتلاك ما لا يملكه في حياته؟

– أنت تعرف حقيقة الأمر كله، لماذا تكثر من الأسئلة؟

كانوا ينظرون كلهم إلى وجهه الشاحب وإلى عينيه الحائرتين، وهو لا يكف عن تحريك رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وهم يتبادلون النظرات البلهاء تجاهه لا يعلمون ما هو الضروري قوله في حالة كهذه؟.

– وإذا لم أوافق على مقترحكم، أواجه وحدي اللصوص والخاطفين وربما القتلة أيضاً أليس كذلك؟

– بالضبط، وسنذهب للبحث عن غيرك للقيام بالعمل!!

– هذا عمل عجزت عن إنجازه الحكومات من قبل، كيف تريدني أن أنجزه بمفردي؟

– أيها المسرحي الطيب الحكومات كانت لها غايتها المعروفة وأنت سيد العارفين بذلك..

– وأنتم اليست لديكم غايات معروفة وأخرى خفية؟

مكتبة الفكر الجديد

وبكل الوعود والعهود التي يمكن أن تؤخذ على الإنسان في حالات من هذا النوع وبصوت واضح النبرة صريح العبارة قال للرجل الأنيق:

– أرفض كل ما طلبته مني وما ستطلبه الآن ولاحقاً، أنا أعتقد إذا تورطت في عملية من هذا النوع، لا تجوز لي الكتابة في المسرح بعدها لأنني أكون قد خلفت.....

صاح الرجل الأنيق به: – اسمع يا هذا إذا لم تكف عن الهذو بين حين وآخر سوف تتلقى درساً بالغ الأثر..

– أنا أتحمل مسؤولية ما أقول يا سيد عبد الله!! أليس هذا هو اسمك كما تدعي؟ وأعطيتني اسم أيوب؟

ضحك الرجل الأنيق وقال: حسناً وكما تريد، سوف أناديك باسم عبد الله رقم – 1 – أما أنا سوف أرضى برقم – 2 – ماذا تقول بهذه القسمة؟ أهي قسمة ضيزى كما يقول الأعراب..؟ أم تجدها منصفة؟ أتريد اسم عبد الله واحد؟ قل لنا الآن حتى يعلم الكبير بأمر تسميتك الجديدة وبها سوف تتم المخاطبة بينكما..

– أنا لا اذهب لأحد وليس لي من طلب وجهته إلى أحد!! وأرجو أن تكفوا عن طلب ما لا طاقة لي من القيام به!!

– بل تستطيع أن تقوم بعمل نحن نقترحه عليك..

– أنت تخفف من ثقل التسمية تقول: نقترح عليك ولا تقول نفرضه عليك بالقوة!!

– لن يستخدم العاقل القوة التي بين يديه إلا في النهاية القصوى من المطاف يا سيد عبد الله..

– عبد الله رقم واحد أليس كذلك يا سيد عبد الله رقم اثنين؟!

–..... !!

مكتبة الفكر الجديد

– حسنا لماذا لا تجيب يا سيد عبد الله رقم اثنين؟

–.....!!

– الآن بدأ وقت العمل الجاد ولا تعتب على أحد بل على نفسها جنت براقش، أليس المثل هكذا يقول عن براقش؟

– افعلوا ما تستطيعون، ما تطلبونه مني أمر من الصعب القيام به، لا.. لا أبداً لا أستطيع يا سادة أن أتصور حالتي لو كتبت تاريخاً مزيفاً، كما حصل في السنوات الماضية، عندما تورط البعض من تزوير التاريخ؟

فجأة صرخ الرجل الأنيق به ماذا حصل يا مجنون، لو قمت بعملك الذي نطلبه منك الآن، لكتبت تاريخ شخصية وطنية عانى أهله من الإنجليز فيما مضى من سنين، هل تفهم؟

– الشخصية الوطنية ليست بحاجة لكتابة تاريخ لها لأن تاريخها ليس شخصياً.....!

– أنت تتكلم مثل المسرحيات أو الكتب!

– أنا أتكلم ما أعتقده صحيحاً ولا يسيء إلى سمعتي!!

– لم يُبق لك خاطفوك من سمعة بل حتى ولا كرامة، إذا تعاونت معنا سوف نجعل مقامك أعلى من مقامهم، هل تفهم؟

– لماذا تسألني إن كنت أفهم أو لا أفهم؟

– ألا تعتقد أني قد أكون أكثر منك فهماً؟

– لا أشك في ذكائك ولكن هي عادة سيئة، أعترف لك بغبائي

– يا أخي العزيز..

– أنا لست باخ لك، واجبك المكلف به من قبل الكبير يجعلك توافق مضطراً..

مكتبة الفكر الجديد

– تختلف مهمتنا، قلت لك، الرجل الكبير حزين لأن تاريخ عائلته ليس من التواريخ التي يتشرف بها، أو بالأحرى تاريخ مضحك كما يتندر هو بشخصه على تاريخ العائلة الكريمة بالطبع وكل عائلة شبيهة بعائلة كبيرنا هي كريمة بالضرورة يا سيدي، والمطلوب منك المباشرة بكتابة تاريخ عائلة الكبير الذي بيده، خبز أطفالنا، وثمن خمرتنا ودمومة مسراتنا ووقوف عوائلنا بوجه الفاقة والعوز الذي يخشاه كل إنسان في هذا البلد غريب الأطوار!! ربما تفكر أنك سوف ترسلنا إلى سطح القمر بمركبة فضائية نادرة وغالية الثمن؟! كلا يا سيدي إنما المطلوب هو أن تقول كلمة طيبة بحق رجل يصر من جانبه على كتابة تاريخ مشرّف له ولأولاده وأحفاده من بعده.. تاريخ يشبه من حيث المعنى تاريخ الملوك والسلاطين الغابرين، هل تفهم؟ أم أنك تتمنى أن نتكفل حمايتك والحفاظ على سلامتك بدون ثمن؟ إذا كان هذا تفكيرك اعلم يا سيد أنك إما واهم أو مخبول، واعذرني على تلفظي الكلمة الأخيرة، الحقيقة أنت ابن أكبر عاهرة في هذا البلد المسخرة الذي يرتضي أن تكون أنت من بين كتابه المسرحيين، ولا يملك أن يلقنك درساً باحترام الناس الطيبين؟! هل تفهم الآن يا سيد أم أنك لن تفهم بعد الذي قلته لك؟ هل تريد توضيحاً آخر تفهم منه لماذا أنت وليس غيرك من عشرات الكتاب؟ هل تريد شرحاً جديداً يا أخي؟ حسناً سأقول لك الحقيقة كما هي وبحضور أخوتي سعد وسعيد، أن ما نسعى إليه هو تزييف تاريخ وانتحال صفات وليس صفة واحدة إذ الرجل الكبير الذي تعنينا راحة باله، هو رجل نهم بكل شيء حتى انتحال التاريخ وتزويره وكتابة صفحات لم تكن موجوده من قبل، نهم وجشع في كل شيء، حتى الهواء يريد منه كمية أكثر مما نحصل عليه أنا و أنت وسعد وسعيد كلنا مجتمعين!! طيب هل تريد توضيحاً آخر يا سيد؟ أم أنك فهمت المقصود بعد هذه الخطبة العصماء؟

– .....!!

مكتبة الفكر الجديد

– هل ستكتب تاريخ الرجل أم لديك رأي آخر؟

– .....!!

– اعلم يا سيد أن الوقت يداهمنا، انظر كيف تزحف خطوات المساء على الدنيا؟

– وماذا يهمني من المساء ومن الدنيا كلها؟ أن أعترف لك وللأخوين سعد وسعيد، أليس هذان اسميهما؟ أعترف أني غير قادر على مواجهة الخاطفين، ولكني لا استطيع كتابة تاريخ لرجل لا أعرف عن حياته أي شيء كما أني أشك باستقامة هذا الرجل الذي تطلقون عليه بالرجل الكبير بل دعني أسألك: كيف يجيز لنفسه وعقله أن يختلق له تاريخاً ولعائلته سيرة حسنة في الوقت الذي لا صلة له بالعوائل الكريمة؟

– من قال لك أن لا صلة للكبير بالأسر الكريمة؟ لقد تجاوزت حدودك أيها الغبي، ألا تعلم أننا نستطيع أن نرغمك على كتابة ما نريد وأن حياتك أيها الأبله في قبضة أيدينا؟ وأن أمثالك ما هم إلا حشرة نستطيع سحقها كالنملة، أنا هنا أحذرك من التمادي معنا؟ هل تفهم ما أقول أم تريدني أعمل على إفهامك بالقوة؟ ألم تلاحظ صبري وسكوتي ما هو إلا محاولة لترغيبك بالأمر وإقناعك بأهميته وأني أدعوك للقيام بعمل وطني شريف، لكن أمثالك أخذتهم العزة بالنفس وراحوا يمنحون أنفسهم المزيد من الأهمية والاعتبار وهم لا يستحقون لا هذا ولا ذاك!! وسوف أظل أطرق على رأسك حتى تفيق من ساعة سباتك التي طال أمدها، والآن قل لي ما توصل إليه عقلك من قرار يخص ما طلبناه منك قبل الآن وبعده؟

كان قد فكر (الذي اسمه أيوب بعد أن كان يدعى عبد الله) في لحظة حاسمة ما ينبغي له أن يفعله، والغريب وجد في أعماقه السحيقة ما يجعله يستخف بكل التهديدات التي ألقاها عليه الرجل الأنيق، بل وجد هناك في نقطة بعيدة من وجدانه ما دفعه للسخرية من الرجل الأنيق بقضه وقضيضه

مكتبة الفكر الجديد

ضحك الشابان معاً وبحركة تشف، جعلت الرجل الأنيق يغتاظ ويدفعه ذلك إلى الصمت والترقب المرير وهو يحدق بهم ظل يركز على السيد عبد الله الذي يصر على رفضه لتسميته: أيوب، ينتظر منه ردة فعل ثانية، على صمته المطبق، صمت الرجل الأنيق الذي استولت عليه الحيرة العجيبة للصراحة التي فاجأه بها السيد عبد الله، كان الرجل الأنيق يعلم أنه غير قادر في حقيقة الأمر على إرغام المؤلف المسرحي على تنفيذ طلبه في كتابة تاريخ عائلة الرجل الكبير، الذي من المحتمل أن يدع السيد عبد الله يلتقيه، خارج الحانة أو يختلق له عذراً للوصول إلى عرين الرجل الكبير، وكان الرجل الأنيق يعتقد أن اللقاء بين السيد عبد الله وبين الرجل الكبير لو حصل على أرض الواقع سيكون الأمر قد حسم منذ الدقائق الأولى، هو واثق من سيطرة الرجل الكبير على السيد عبد الله حالما يلتقيان، ولن تكون هناك جهود إضافية بعد اليوم، غير أن المؤلف المسرحي ومن جانبه فقط كان يفكر في عمليات التزوير والتزييف التي لحقت بالتاريخ عبر الحقب والعصور التي مرت، قديماً وحديثاً و لم يغفلها الناس في الإدانة والسخرية من مرتكبي جرائم من هذا النوع وداخله إحساس عميق في أنه إذا أرغمه الرجل الأنيق والشابان، سعد وسعيد على الذهاب معهم للقاء الرجل الكبير حسب ما يدعون، فإنه سيقاوم أي تهديد يلوح به الأخير وسيرفض أي ترغيب قد يعرضه عليه ومع هذا كله وجد نفسه صامتاً ومسحة من حزن وكآبة تعلو محياه وكان يفكر جاداً لماذا هو بالذات وليس كاتباً أو إنساناً آخر يمكن أن يحدث له هذا كله الآن؟

بغداد -- أحمد خلف

مكتبة الفكر الجديد

(حاول لململة طاقته لكي يسألها من تكون وماذا تريد ، تردد قليلا لأنه كان يخشى ان يحرك كوامن الخوف في اعماقها وتتصوره بحالات وصور شتى لأنها لاتعرف عنه الكثير ، بل فكر أن ما تعرفه عنه هو ما سمعته من الاخرين ، وهي لم تلتقيه او تتعرف عليه في ما مضى من ايام ، ولم يسبق له ان سمع هذا الصوت واستمتع بنغماته ، وهذه الشحنة الطاغية على صوتها توحي بالمزيد من الدفء الرباني الذي يهبه -الله --- لمن يشاء من عباده الصالحين وغيرهم كذلك ، كيف له التخلص من هذا الغياب الذي لم يحسب له من قبل اي حساب ، الآن بل هذه اللحظة التي بدأت فيها الامور اكثر غموضا بحضور هذه الفتاة التي لها صوت ناعم ورقيق ايضا ، لو لم تحضر الفتاة الى هنا وتتحدث معه ربما يرضيه الدخول في لعبة التخمينات والحدس وعليه أن يهيئ نفسه لمئات الاحتمالات ، لكن الفتاة فجأة راحت تبث في اعطافه نوعا من الامل ، لقد سحرته بنبرة صوتها المرتعش كأنه الهمس المذعور ، صوت له نغمات وترددات من الواضح انها تتقصد ان تضيفها على صوتها بالكلام الهادئ معه . الا يتأمل كيف تفكر الفتاة وتتحدث كانها تستنطق الحجر بخطابها المدهش ؟ ورغم حديثها الطري والمتفائل الا انها لم تتورط في ازاحة الرباط عن عينيه ليرى النور من حوله)

تسارع الخطى

تصميم الغلاف ماجد الماجدي

ISBN 284306220-9

9 782843 062209

مكتبة الفكر الجديد